غسان كنفاني

صفحات كانت مطوية



بقلم عدنان كنفاني

الإهــداء

نحن الجيل الوسط

نسلّم الراية للقادمين

القادرين على خلق الوسائل والبدائل..!

عينكاف

ما جاء متأخراً.. ليس متأخراً أبداً

تقديم: خالد أبو خالد

منذ تفتّحت الفاجعة في حقل القارئ العربي باستشهاد غسّان، وهو يتساءل.؟
ترى أية طفولة.. وأي صبا عاشهما الكاتب الذي منحه كل هذا الفيض، من الحبر إلى الدم.؟
وكيف تشكّلت ملامح الكاتب الثائر.؟
من الذي، وما الذي أسهم أكثر في تكوينه.؟
النكبة.. أم الأسرة.؟
الناس الذين عرفهم، وارتبط بهم .؟
أم الذين عرفوه، وارتبطوا به.؟
كيف رأى.. وكيف قرأ.؟
بأية عيون.. وبأية مشاعر.؟
ما الذي شكّل رؤيته، ورؤياه.؟
وما الذي ألّف بينه وبين الأحداث.؟
وهل كان صاحب "القميص المسروق" وهذا عنوان إحدى أولى قصصه.. يكشف عن مستقبله الخاص في خطواته الأولى على طريق الأدب..
أم عن مستقبل شعبه، إذ كان يعبّر عن "الأنا – الجمعية" في مشروعه الذي تمحور حول قضية واحدة.. هي فلسطين.! حتى عندما كتب بعض قصصه ذات الخصائص الاجتماعية.!
أم أنه اكتفى بالتعبير عن ذاته فحسب.؟
غسّان الذي التقيت به أول ما التقيت عام 1955 في النادي الثقافي القومي في شرق الكويت، واقفاً قرب الجدار الذي يقع إلى يمين الداخل للمبنى، وقد علّق على اللوحة ما كان قد رسمه، ولم يكن ذاك سوى علم فلسطين بألوانه الأبيض والأسود والأحمر والأخضر..
وهي كلها الألوان التي سكنته أبداً، حتى أسكنته فيها.. لأنه الجدير بذلك، جدارة الفتى شاحب الجبين وقاني القلب..
غسّان هذا الذي رحل مخلّفاً فينا حياته للتأكيد على حضور متجدد.
لم يكتب عن ذاته المفردة، أو المتفردة، تاركاً لنا أن نفعل ذلك نحن الذين عرفناه، أبكر مما ينبغي، أو متأخرين أكثر مما ينبغي..

ولعلنا نكون غير منصفين لو تحدثنا عنه "وقد فعلنا" مغفلين الصورة التي قدّمها عنه أبوه.. ذلك المربّي الكبير الذي شغل الكثير من سطور يومياته بالمثابرة على استشراف صورة غسّان التي نعرف عن طريق الصورة التي يعرف..

الصورة التي ظلت دائماً أقرب إلى الحلقة المفقودة في صورة الكاتب، والمناضل الذي أنطق الكتابة بهويتها، التي لا تكون بدونها كتابة بالمعنى الإبداعي الخّلاق..

وإذا كان والد غسّان قد طوى صفحات يومياته على صورة غسّان الطفل، والصبي..

فقد دأبت "أم لميس" على رواية الجانب الآخر من الصورة بأحاديث شفوية، استمعت إليها.. ليس بعد استشهاد غسّان، وإنما قبل استشهاده بسنوات عديدة ناقلة لحلقات الأصدقاء صورة الفتى الشاحب الطموح، فظلّوا يواكبون سيرته كما لو كانوا يعايشونه إلى أن فقدوه..

ولقد أحبّوه، وأعجبوا به، بعدوى حبها وإعجابها به..

وهي الأخت الشقيقة التي قامت في حياته بدور الأم الصغيرة..

وهو الذي بادلها الدور فقدم لها رعاية أخ أكبر من سنّه يوم واكب غربتها الأولى في ريف دمشق..

غسّان، وأدب غسّان.. ظلّا دائماً محور كتابات لا تنتهي، ومصدر ثراء للكتابة..

إنما ظلّت هذه الحلقة المفقودة بالنسبة للقارئ، مفقودة.. فهو يعرف غسّان المبدع.. وغسّان المناضل.. وغسّان الشهيد.. لكنه ظل أبداً أسير التساؤل.. ترى.!

أين هو سر ذلك، في طفولته وصباه.؟

إلى أن جاء عدنان كنفاني ليجرب الإجابة على السؤال، من منظور طفولته هو، وصباه هو أيضاً، متكئاً على اليوميات الغنية.. فقدّم لنا هذا الذي نقرأ..

فأكرم غسّان، وأكرمنا بما يعرف، وبما لم نكن نعرف.. وكشف في هذا الذي كتب **(غسّان كنفاني.. صفحات كانت مطوية)** كل الإشارات أو معظمها كي نرى طفولته وصباه.. وكي نقرأ فيهما كيف تشكّلت تفاصيل حياة المبدع العظيم، تلك التي كانت في رؤيا أبيه..

ترى.؟

هل ارتوى الظمأ إلى معرفة ما لم يكن معروفاً لدينا عن طفولة غسّان وصباه.؟

أم ظل هناك ما لا نعرفه، وما لم يعرفه عدنان.؟

بالتأكيد.. ففي طفولة غسّان، ما لم يكتبه أبوه، أو أخوه.! ولكننا، وإذا ما عدنا إلى إبداعات غسّان في قراءة جديدة في الضوء الذي قدّمه عدنان، فسوف نكتشف أن ثمّة ما مررنا به دون أن ننتبه حول تلك الطفولة، وذلك الصبا.!

غسّان كنفاني.. صفحات كانت مطوية، دعوة جديدة لإعادة قراءة غسّان..

ومفتاح، وضوء.. قدّمهما لنا عدنان كنفاني من منظور طفولته، إنما بلغة مبدع يعرف أن اللغة لا يبتذل..

وأنها ترتدي معناها حين تكون أمينة وصادقة، وجميلة كما هي في صفحات حاملة شعرية عالية جديرة.. لأنها استطاعت أن تتمثّل الحياة التي تجلّت في الطفل غسّان.. والفتى غسّان.. والمناضل غسّان.. والشهيد المبدع الذي لم يكن سوى.. غسّـان..

وليسمح لي أخي عدنان أن أؤكد له، وللقارئ أيضاً..

بأن ما جاء به متأخراً عن موعده سنوات.. ليس متأخراً.. أبداً.!

خالد أبو خالد

شباط 2000

غسّان كنفاني..(الطفولة والصبا)

مدخل..

أرتعش كلما قرأت لغسان، تشتّد نبضات قلبي، أحس بالدوار إن تحدّثت عنه، أخاف أن أقسو فتتكسر صورة مرسومة بريشة ناعمة على صفحة ماء رائق، وتغوص بعيداً عن ملمس أصابعي رغم أنها تنبض في صدري، تسير في شراييني..

أمسكها.. أغطيها.. أضمّها إلى كنز أسراري، أدّعي أنها ملك خالص لي ولأسرتي..

فهو فوق الأخ.. وهو فوق الجرح النازف في كبدي، نجمة تربّعت واحتّلت مساحة صدري وجبيني.. ملأتني بأحاسيس فخر وانشداد لا أستطيع وصفها، أقول ولا أصدق..

يرحمك الله يا غسان.!

حتى بلغ العمر بي، وبه ما بلغ..

فاليوم يحتّل غسّان رغم فراق الجسد قمة أربعة وستين عاماً ما زالت تنبته فوق الأرض.. تجّذره تحت الأرض..

يقول لي مع كل صباح:

ـ بعد الموت تتبّدل الأشياء، يسافر دم القربى عبر المسافات.. يمهّد سبل الخلاص للقادمين.!

فهل أستطيع أن أكتب عنه.؟

تعوّدت أن أكتب له رسالة كل "تمّوز".. أقول، سنة بعد سنة أننا ما نزال نواصل "الدّق بعنف أكثر على جدران الخزّان ذاته".؟

يسمعني ولا يصدّق.!

أليس هو القائل بأنه: من الجيل الذي يعد الجيل القادم للنصر.؟

وتخجل الشوارع والأرصفة الحمراء.!

تموت عشقاً أحواض النرجس والريحان..

ولا يأتي غسّان.!

أحسبه ما زال عالقاً بين الأغصان..

ينزف عطراً، ويقطر كبداً وأمعاءً تحنو عليها وريقات طريّة، تلقّها بحنان جم فتصير مع الريح نسغاً محفوراً في الأصل والجذر.

وتزهر ابتسامات تتساقط مطراً ولا يسمعها أحد، لتتبت من جديد حول سيقان الأشجار الضخمة شقائق نعمان قانية تؤصّل حكايات جدّتي عن دم الشهداء الذي ينبت الزهرات الجميلة..

يسألني:

ـ لماذا ـ؟

فتنحني الأشجار في وادي الحازمية تواضعاً..

يضيء الطريق الترابي المتعرّج الذي تأتي منه أم سعد، تحمل صرّتها التي يفوح منها ريح الريف.!

وتمضي الصور الأخرى، باهتة، خجولة..

تمسح الأمل.. تدفنه في صدور المتوضّعين خفافاً على إنجازات الماضين..

يمتّصون العشق الذي كان ويصيّرونه انتصارات لا تطاق محشورة بوهم في رؤوس الحالمين الجدد.!

وتمضي الدورة الأبدية أيضاً فوق فضاء الحازمية. ترفض أن تذوب، وتشرق كل تموّز من بطن الوادي الذي أرّخ الحلم الحقيقي، وأصّر على بعث الحياة فيه كل دورة "وهو أضعف الإيمان"..

تبحث عني فلا تجدني.! تسألني.؟ تعاتبني.!

لماذا لا أستطيع أن أقف دقائق أمام حجرين من الرخام أقرأ سورة الفاتحة.؟

قلت في نفسي..

ما أقسى الحلم عندما يقترب من ملمس الأصابع.!

فليبقى إذن بعيداً..

حلماً.! تنسج وأنت في ترحالك فيه صور الأشجار التي تنحني، والأزّقة الترابية التي تحتضن أقدام الأحبة الحالمين.. مثلي..

والابتسامات المطرزّة على حواف الأمل..

مشّعة نقية من عيون ملتصقة على قبرين تحت أشجار السرو والصنوبر..

وتبقى مشّعة ونقيّة رغم الصيف والشتاء، والصيف والشتاء والصيـ...... لرفيقين في صمت أبدي، يسبحان في برزخ يتماهى في روضة جنّة زيّنها الله للشهداء.. على مقربة من حلم. ولد، ويكبر عبر المسافات والحكايات والذكريات..

هل هو "علبة من زجاج" أم "بارودة" تتعلق على كتف طفل أم "قفص لحسّون حبيس".؟

هل هو "مسامير على أرض المخيمات"

أم "أرقام أسرّة"
أم "دالية" أطلقت أوراقها اللحظة.؟
هل هو صرخة لفظتها الصحراء لرجال معلّبين في "خزّان" أم هو فرحة "العاشق" ومعضلة "الأعمى والأطرش".؟
هل هو "فارس فارس" أم "هشام" أم "غينكاف".؟
أم أنه كل هؤلاء.؟
وتحملني الذكرى..
تحط بي كنورس عاد من رحلة عمقها ألف عام..
أقول:
علمّتني الكثير.. زرعت في نسيج جسدي شرايين تحمل بعضاً من دمك.. قلت لي:
- إن الموت السلبي للمقهورين والمظلومين مجرد انتحار وهروب وخيبة وفشل.!
الثورة وحدها هي المؤهلة لاستقطاب الموت، الثورة وحدها هي التي توّجه الموت، وتستخدمه لشق سبل الحياة..
وها أنا ذا أكتب عنك..
أفتح الصفحات المطوية..
أتحدّث عن طفولتك وشبابك..
فهل أطمح أن أكون جديراً بالدم الذي أحمله.؟

عدنان كنفاني

(1)

من قال أن السفوح ومهابط التلال تتشابه.؟
ذات صباح حزين، حملنا صندوق سيارة شاحنة، وكنّا ثماني عائلات.. نساءً وأطفالاً وشيوخاً مع المتاع.. سقط بعضهم على الطريق، وصمد من بقي إلى وجهة الوصول.!
بدا لنا السفح الأخضر مدروزاً من منطلق النظر إلى آخر المدى بألوان شتى، لم تكن خضراء ولا صفراء، بل حمراء وردية، أضافت عليها الشمس عند الغروب لوناً أشبه بلون قشرة برتقالة لم تنضج بعد، ولم تلبث أن ضربته حتى القمّة، عتمة مطلقة..
على منحدر ذلك السفح، بجانب الطريق الضيّقة المعبّدة بالتراب الصلب، قلبنا صندوق السيارة المكتظ فوق متاع لنا قليل.!
ومضت تخلّف وراءها سحابة قاتمة من الدخان الأسود..
حين غاب الصوت، سقطنا في لحظة صمت مرعبة..
ما العمل.؟ أين نمضي.؟ وكيف نسير.؟ ومن يحمل معنا شقاء شيخ هرم لفظه تاريخه الذي تصوّره عميقاً بما فيه الكفاية.؟ وألقاه جسماً ضعيفاً لا يعرف أين.. ومتى يبدأ الحزن.؟
آه أيتها "الغازّية"..
من صيّرك على نقطة العبور.؟
من أرخى جدائل سفوحك، ورشقها على جباه التائهين.؟
جعلها زعتراً وشوكاً وشيحاً وأشياء أخرى خضراء، ليكتشف الصغار، بعد موجات الجوع المنهك أنها تؤكل بنهم لذيذ.! وتصير بالتقادم أصنافاً وأشكالاً لأطعمة، تبرع أمي بخلطها وطبخها.. وتصير غاية في الترف..
يكتشف "غسّان" كوخاً على قمّة المرتفع الصلب، فنعدو نحوه، نشرق فرحاً، نراقبه بشغف يطوي نهاره الطويل، وينحني..
سقف مهلهل، جدران ملأتها الحشرات، أبواب ونوافذ غادرت مواطنها، وأرضية لم تزل تعاني من ضنك التراب..
هو كوخ رغم ذلك، يتسّع لفراش يحمل الأجساد الثمانية، كان فيه لقاؤنا الأول مع اللجوء المرّ..
في تلك الليلة..
آه من تلك الليلة..
عشّشت في دهاليز أذني وشوشات غسّان..

يضحك.!

كان يضحك..!

يحملنا بقرف النكتة الممجوجة، يصوّرنا، يشرّحنا.. ثم يلقي عذاب أمي بين كفتين..

إما الموت، أو هذه الصورة من الحياة.!

وحين تصير المعادلة بهذا الشكل تنطوي كل الأحزان، وتصبح أنيناً حزيناً مكبوتاً يتمّسك بالقدر ومشيئة الله بحزم مؤمن.. ويرضى..

لمست راحتيه، فأحسست بالحروق مسنّنة تكاد تجرح ماء العين..

لم أجرؤ على السؤال..

رأيته قبل أيام فقط يتطاول بين سيقان الكبار المقاتلين، يقفز بفرح انتظاراً لحدث.. نصر..

يلّم أغلفة الرصاص الفارغة، يدسّها في جيب بنطاله القصير الذي لبسه رغم اعتراض أمه، فالصباح بارد ونسمة الخوف تسري رعشة في صدور الكبار، فكيف بطفل لم يتجاوز الإثنتي عشرة بعد.؟

أطل من بين أفخاذ الكبار، استندت على رأسه ماسورة بارودة أحمد السالم، وعلى كتفيه مسدسان لفاروق غندور، وغازي..

وحين أوشك أن يستسلم لرائحة البارود المنعشة، سقطت قذيفة على مقربة منه فارتّد، وجرى إلى داخل البيت الأمين..

تعثر بظلال شجرة التين الهرمة التي تطاولت وتجاوزت حدود المكان..

ظللت أغصانها "تلّ الزفزف" وأطراف الساحة التي حملت على جزء منها ملعب "الرنّة"..

في المساء يندرج فراش كبير في القاعة الرحبة يستوعب الأطفال العشرة، يستمعون بانتباه إلى حكاية جديدة..

كل شيء غاب وراء ضباب كثيف..

آه، لو أستطيع أن أبدّده.؟ لكنّه تكاثر وتكاثر، وصيّرته السنوات العجاف ضبابا ثقيلاً في وادٍ مترامي الأطراف..

دفن رأسه في زاوية المطبخ.. سمع عويلاً وصراخاً وأصواتاً تشبه النباح..

قالوا دخلت اليهود عكــا.!

جعل رأسه على صدر أبيه، واستسلم إليه، وأمضيا ما تبقى من الصباح ينشجان معاً..

بعد أربعة أيام، خرجنا من عكا..

وفي كوخ "إبراهيم أبو بيقة" أمضينا أول ليلة على قمّة مرتفع في الغازيّة..

أيقظتنا الشمس في الصباح..

أشرقت قبالتنا تماماً..
أذكر أنها كانت تشرق من الجهة الأخرى في بيتنا المستلقي في حي المنشية على شاطئ بحر يافا..
سألت غسّان..
كنت صغيراً في الثامنة من عمري:
ـ هذه شمسنا.؟
أسند ظهره الضئيل إلى جذع شجرة كبيرة..
أجابني بحزن:
ـ إنها الشمس ذاتها.. نحن فقط أدرنا ظهورنا.!
وخرجنا ننزل السفح الأخضر من خلف الكوخ.. ثم نصعد المرتفع المقابل.. آلمنا الجوع، تعلّمنا يوماً بعد يوم كيف نختار ونعرف ونحوّش الزعتر البّري، والشيح، ونباتات أخرى أضيفت أسماؤها إلى مفردات لغة جديدة يجب "كما قال غسّان" أن نتعلّمها..
إلى جانب نبع ماء صغير جلسنا.. نظر إلى السماء.. ثم في وجوهنا.. وقال بحسرة:
ـ منذ أيام فقط سألت أستاذي متى يصبح الرجل رجلاً.؟ وسكت.!
سألته :
ـ ماذا قال لك .؟
رأيت لحظتها على ساحة وجهه الملفوحة بأشعّة الشمس، وارع كثيرة متداخلة متقاطعة، تقود تارة إلى مدرسة روضة الأستاذ وديع سرّي في يافا التي انتسب إليها منذ بلغ عامه الثاني، وتارة إلى مدرسة الفرير التي عايشت مرحلة تعليمه الابتدائي، رأيت شارع اسكندر عوض، مكتب والدي، معمل بلاط أبو شندي في ركن الشارع العريض المنتهي تماماً أمام رمال الشاطئ الذهبية..
رأيت أوراقاً كثيرة تحمل خطوطاً..
رسوماً تتحدث عن العصافير والسماء. وأطفالاً نظيفين لطفاء، يحملون زّادهم بسلال صغيرة أنيقة. تودّعهم أمهاتهم بحنان جّم من شرفات ملئت وروداً وزهوراً، رسوماً لأطفال ينامون باكراً، ويحلمون بزورق من ورق، يبحر على موج ساكن إلى دنيا من خيال مشبع بالكفاية..
رأيت كل ذلك فوق كفّين محترقين، وكومة من أعشاب لها مسمّيات جديدة، وبنطال قصير ملوث بالطين وخضرة ندى النباتات، في جيوبه أغلفة رصاصات فارغة، وجبين حزين غفا أو لم يغف على صفحة وسادة من تراب..
فعرفت الجواب.!

بعد أيام أتت سيارات كبيرة تحمل طعاماً وحليباً مجققاً والكثير من الخبز، بإشراف رجال ونساء بملابس نظيفة بيضاء، ووجوه حمراء، قالوا:

- هؤلاء هيئة الأمم.!

سجّلوا في دفتر كبير أسماء الناس، ثم قاموا على الفور بحملة تطعيم إجبارية للسكّان واللاجئين بلقاح الوقاية من مرض التيفوئيد الذي بدأ ينتشر..

استطاع غسّان الهرب منهم إلى الأحراش الكثيفة القريبة عبر الطرقات الخلفية التي حفظها عن ظهر قلب، بينما أقعد اللقاح كل المتطعّمين به عدّة أيام تحت درجة حرارة مرتفعة وهذيان متواصل كان غسّان الوحيد الذي قام على العناية بالجميع، ونجا أيضاً من المرض الخطير..

هو الحدث الأهم الذي لون رتابة حياتنا في الغازّية لأيام قادمة معدودة، ثم عادت الدوائر من جديد إلى حركتها السابقة، تأخذنا تارة، ونأخذها..

وبين هذا وذاك بقي السفح الأخضر مساحة دنيانا..

في صباح يوم باكر خرجت وأخوتي الثلاثة، تتناول أيدينا بفعل الخبرة كل صالح ومفيد، نركض بفرح، نتراشق بزهرات شقائق النعمان المفرودة تحت أقدامنا النحيلة..

فجأة برز وكأن الأرض انشقت عنه كلب ضخم، وقف غاضباً متحفزاً أمامي وجهاً لوجه.!

جمد الدم في عروقي، وأدركت أنني هالك لا محالة..

دار رأسي، تلوّن الأفق أمامي بألوان لم أعرفها من قبل، وسقطت أمامي في ذات الوادي الضبابي الذي ما انفك يلاحقني، دفعة واحدة عشرات الأحداث.. ابن "الطشلة" الولد القوي الذي كان يتدرب على فنون الملاكمة، يربط كلبه الضخم بسلسلة طويلة في ركن الشارع الموصل إلى بيتنا في المنشية، يقف أمامي، فأبتلع لساني، أجاهد في طلب النجدة من أحد، ولا يسمعني أحد..

لا أسمع صوتي من شدّة الرعب، يضيع صراخي، يختلط مع أصوات الرصاص والقذائف، وصرخات العويل والوجع المرتفعة كل لحظة من المستشفى الوطني الملاصق لدار جدّي في عكا..

بيت خالتي الواسع، ملعب طفولتنا..

شجرة التين الكبيرة التي تسلقت خارج المكان..

رجال يطلقون الرصاص من بواريد ومسدّسات عتيقة، يتطاول بين سيقانهم شبح ولد لم يتجاوز عمر الطفولة بعد، يلتقط أغلفة الرصاص الفارغة..

خلعت نعلّي بحذر.. قررت أن أطلق ساقي للريح..

صرخ غسّان:

- إياك أن تتحرك.. لوّح له بقبضة يدك كأنك تمسك حجراً، وانظر في عينيه مباشرة.!
وحين فعلت والرعب يملأ قلبي..
ذهلت.!
نكّس الكلب رأسه.. ومضى بهدوء شديد..
بعد سبعة وثلاثين يوماً بالتمام، خرج والدي إلى القرى المجاورة،الصالحية، والمية ومية وغيرها للبحث عن مكان أفضل..
عندما رجع كان قد اتخذ القرار بالرحيل إلى مكان آخر.. حملنا في مقطورة زراعية نحن ومتاعنا القليل إلى صيدا، لنأخذ منها القطار المتّجه إلى سورية..
كان قطاراً معدّاً لنقل الحيوانات، عرباته الكثيرة، الواسعة تغّص بالركّاب أمثالنا، لكننا استطعنا اختراق الكتل اللحمية واحتلال زاوية كافية لعددنا..
علمنا بعد قليل أن القطار يتجّه إلى حلب المكان المختار لتجميع اللاجئين..
وما أن توّقف في محطّة حمص حتى نزل والدي وأنزلنا رغم اعتراض المشرفين على الرحلة.
جلسنا في ركن المحطّة ساعات كثيرة قبل أن يعود مع سيّارة، نقلتنا إلى دمشق العاصمة ومنها على الفور إلى قرية الزبداني..
علمنا فيما بعد أنه باع في حمص خاتم زواج أمي.!

۞ ۞ ۞

(2)

من قال أن الجبال تتشابه.؟

نعرفها.؟

الكبار يعرفونها..

كانت في بعض سنين ملاذ صيفهم الدبق، يؤمونها أشهراً معلومات يسكنون شهراً أو يزيد في بيت مفروش، حوله بستان يحتوي على ما لذّ وطاب من فواكه وأعناب، ومياه عذبة جارية، وحمّامات، وأصناف شتى من الزهور، وفراش وثير وأغطية من كل صنف ولون، فيه أوان من نحاس، وزجاج، وصيني وشيني.. ومذياع بموجات عديدة..

يسمّونها عروس المصايف.. نفسها.. ذاتها. الزبداني على منحدرات جبال أيضاً.. نطرقها اليوم، يشجّعنا على الإقامة فيها أبو رفيق، محمد ياسين. ويقوم متحمّساً بحجز بيت "أبو علي الزين" لنا وحدنا..

هو بيت، رأيناه على البعد كذلك، بعد أن تفتح الباب بشيء يشبه أي شيء إلا أن يكون مفتاحاً.. فهو من خشب، طويل أكثر مما ينبغي وأسنانه كأسنان المشط.. تدخله، تكتشف أنه كان قبل أن تعبث به عوامل الزمن.. بيتاً..

يستقبلنا في أول مساء، وجه "أم علي الزين" الأحمر الطافح، ولكنتها المحببة.. ومنديلها الأبيض الناصع، وطبق كبير من القش الملّون عليه صحن مليء بالبرغل والعدس.. كانت بعد السفر الطويل ألذّ وجبة طعام نتناولها..

صباحاً باكراً، أيقظتنا أمي لنجلب لها الماء من مكان بعيد..

ترى.. متى يستطيع الإنسان أن يعيش الفرح.؟ ويتمتّع بلحظة تأمل صافية بسماء زرقاء، يكاد يلمس سقفها، وجبال تتماوج ألوانها الخضراء بتدرّج مذهل.. يخترقها في بطن سفوحها نهر يتثنّى كأفعى رقطاء أبدع الخالق رسمها، يتناسق ببراعة مع الطرق الترابية المبعثرة بين السهول والقمم، ضيّقة تارة وعريضة تارة أخرى، تتلوّى حول البيوت، ويدخل البساتين والمزارع المنتشرة على جانبيه..

كيف يستطيع الجائع أن يطرق هذه الجنّة.؟ وهو يبحث عن أي شيء إلا الجمال.. فقد أضاعه في مكان ما، وحمل على صفحة خدّه أثراً لخمسة أصابع كتبت عليه بوضوح.. لاجئ..

تحملني الذكرى.. تشدّني، تثبّتني على كرسي منخفض تقاسمت مع غسّان الجلوس عليه منذ الصباح الباكر، فقد قرّرنا قبل بزوغ الشمس.. أن ننتظر ذبيحة الشيخ سعيد جزّار القرية الوحيد، لنحمل أحشاءها وأطرافها قبل أن يلقي بها في القمامة..

عاد الضباب يملأ بطن الوادي.. اختلطت الصور.. ربما رأيت. بل رأيت والدي ينتفض ثائراً، يرغو ويزبد، يحمل الطعام المطبوخ، ويسفحه.. نعم.. الأحشاء والأطراف.!

ثم يركض إلى الغرفة الضيّقة، أراقبه من خلف الزجاج السميك، يعانق صندوقنا الخشبي المغطى بصفائح من التنك الملّون والمسامير النحاسية، يفتحه، يعبث بداخله، وينتزع من أسفله شيئاً رأيت مثله من قبل، يقرّبه من رأسه..

تنقض عليه أمّي وغسّان وفايزة، يصارعونه والقطعة السوداء التي يحملها.. ينتزعونها من يده.. وينتهي المشهد..!

في الطريق إلى النبع سألت غسّان:

ضاع الطعام.؟

أجاب دون أن ينظر في وجهي:

ـ لأننا لا نحب اللحم.!

قلت:

ـ أنا أحبّه.!

قذف حجراً بمقدمة "صنّدله" المقطوع وتمتم:

ـ إذن عليك أن تتعّلم كيف تكره ما تحب..

صمت لحظة وأردف:

ـ أو تحب ما تكره..!

عاد الضباب يملأ رأسي هذه المرة.. من يستطيع أن يتصّور أنه سيروي بعد أكثر من خمسين سنة حدثاً يجري الآن.؟

أو يسرد الآن أحداثاً جرت منذ أكثر من خمسين سنة.. خمسون سنة.. إيــه.! ما أطولها..

أنتشر، أنا ومروان، لنلتقط أكياس الإسمنت الورقية الفارغة من أبواب العمارات التي بدأت تغزو البلدة نفكك طبقاتها الكثيرة، نمسح بقايا الإسمنت عنها ونفردها.. ثم نمضي مرة أخرى نقلع أضراس الصمغ عن جذوع الأشجار المريضة..

ينقلب الخليط بعد حين إلى شكل أكياس أنيقة من الورق، يصنعها غسّان وغازي بقياسات متفاوتة، يحملانها إلى السوق.

في كل مساء "فقد طال الأمر أكثر من شهرين" ننثر في حضن أمّي القروش القليلة، فتبتّل بدموعها قبل أن تجمعها برفق.. وتدسّها في جيب سترة والدي المعلّقة وراء الباب..

وننطلق من جديد.. نأكل تفاّحاً وعنباً ورمّاناً، تصوّر.. ثلاث مرات في اليوم..!

ها هي ذي الصور تغوص من جديد في لحم هلامي، تصبح ورقاً أسمر مفروداً ملطخاً برسوم حقيقية بالفحم الحي، لطفل غزير الشعر أشقر، رقيق الوجه، نحيل الجسم يلصق بالمسامير الدقيقة قطعة من الكرتون القاسي على نعل (صندّله) المهترئ..

ونعود مساءً.. يحسبون أننا ننام باكراً ونصحو باكراً، ولا نجرؤ أن نعلن عن سرّنا المختبئ تحت الغطاء الواسع الذي يجمعنا نحن الأربعة، ينطفئ بصيص الضوء المنبعث من الكاز المعلّق، وتعيش في اللحظة نفسها تتمات قصص وحكايات طويلة متّصلة وحميمة يسلسلها غسّان على مسامعنا المفتقدة والخالية من هموم دروس الحساب والجغرافيا والتاريخ. المتحرّرة من عقد النظافة والأكل المؤدب، ومسح الحذاء، والقميص المنّشى.. والكثير من التوجيهات والتعليمات..

الكبار يعرفونها.. نعم.. هي مصيف يؤمّه الأثرياء، ونحن عرفنا، رغم رؤيتنا للجبال والقمم الخضراء "التي لم تعن لنا شيئاً مختلفاً على الإطلاق" لماذا يسموّنها كذلك. فما أن أوشك الصيف يمضي، وحلّ الخريف يدفعه تشرين البارد ليقصف أوراق الأشجار، ويلوّن السماء ببقع بيضاء متناثرة هنا وهناك، وأسراب السنونو تقلع في رحلة عودة إلى مكان تعرفه جيداً، حتى بدأت سيقاننا العارية تحمّر وتزرّق، يقرصنا كلما اقترب المساء البرد الذي لم نسمع به ولم نعرفه ولم نعان مثله هناك على الشاطئ..

احتملت أجسادنا الصغيرة قدر ما تستطيع، واحتملت آذاننا أيضاً شتى أنواع الصفات، وصمدنا..

أربعة أشهر كاملة على هذه الحال . وعندما قرر "أبو رفيق" صديق العائلة القديم الذي قدّم لنا بفترات عديدة الكثير من المساعدات، أهمها على الإطلاق دعوته والدي للعمل معه كمحاسب لتجارته الرائجة بالخضار والفواكه في مستودعه الكبير في سوق الهال عندما قرّر إنهاء إجازته الصيفية، والعودة بسيارته البويك الداكنة، قرر والدي أيضاً بعد تردّد أن يقبل العمل عنده، ويقبل السكن بالأجرة مع عمتي وزوجها وأولادها الستة في غرفتين من الغرف الخمس التي يشملها بيت إسماعيل آغا المهايني في حيّ الميدان في دمشق..

بعد ساعات، وجدنا أنفسنا جميعاً في بيت نظيف، على شارع نظيف، يضّج بالحركة والضوضاء، ولأول مرة منذ زمن، اغتسلنا بماء يجري من حنفيّة على بلاط أنيق، قضينا بعد الغوص في حمّام ساخن، واحتساء الشاي الساخن، ساعات طويلة في نوم دافئ لذيذ..

۞ ۞ ۞

(3)

تحرّك حفيدتي رأسها يمنة ويسرة، تحملق بحيرة في الصورة المعلقة على الجدار، ثم تجثو على ركبتيها وكفيّها كأنها حمل ولد للتوّ، تنظر إلى وجهي مرّات عديدة، فأتجاهلها. تمسك يدي بكفها الصغيرة، تهزّني برفق، تسألني ولا تزال عيناها معلقتين على الصورة..

ـ كيف يبتسم وهو ميت.؟

شدّني السؤال فنظرت بدوري إلى الصورة..

كان يبتسم حقاً.!

ـيا ملاكي.. سألتني أمك عندما كانت بمثل سنّك، ذات السؤال، جلست مثلما تجلسين الآن، ونظرت بدهشة كما تنظرين..

يومها تحيّرت.. ماذا أقول.؟ وكيف أستطيع أن أحشو في رأسها الصغير إجابة معقولة.؟

أردت أن أقول كلاماً كثيراً وطويلاً، أتحدث فيه عن الموت.. هذا المجهول يا صغيرتي الذي لا يدركه ولا يفهمه أحد، رغم أنه الحقيقة الواضحة في مفهوم الحياة كلها.!

تحدّثنا ليلتها عن الموت.. كانت المرة الأولى والأخيرة التي تمّكن فيها غسّان الحضور إلى دمشق منذ سفره الأخير إلى لبنان ليشارك في تشييع أمّي التي توفيت في 28 أيار 967 قبل أيام من حرب حزيران.. تحدثنا ليلتها عن الموت..

كان جلداً وحزيناً ومقهوراً. لكنّه تحدث عن الموت أيضاً..

قال أنه القريب القريب الذي نحسبه ونحن نعيش، أبعد من التصّور.. فنبتسم في كل الأوقات، نضحك أحياناً، وهو يتربّص بنا على مقربة مذهلة..

لا أحد يدرك متى يأتي الموت، ولا كيف..

قال أنه القاهر الأكبر لغرور الإنسان.. نبتسم في لحظة نحسبها تستمّر إلى الأبد، في ذات اللحظة التي يسخر فيها منّا..

يا صغيرتي.. تساءلت أمك مثلما تتساءلين، ولم أجد لسؤالها جواباً.. قلت لها "بعد أن أعياني البحث":

ـ عندما تكبرين، عندما تعيشين مختلف فصول الحياة.. ستدركين.!

إنها ذات الابتسامة التي تعّود أن يرسمها في مناسبات هامّة ومفصليّة..

رأيتها واضحة على أطراف شفتيه وعينيه المسدلتين على صورة حلم ساخر، يوم استشهد وتناثرت أعضاؤه بين أنقاض كثيرة على مساحة جبل وواد..

ذراع واحدة ونصف صدر وبلا أرجل.. وأصابع تتعلّق على أغصان الأشجار الكثيفة.. الوجه وحده بقي سليماً، يبتسم مثل هذه الابتسامة..
كما عاد يحمل على وجهه ذات الابتسامة أيضاً، بعد يوم اختباره الأول للانتساب إلى مدرسة الكلية العلمية الوطنية في حي سوق ساروجة. قال بثقة أنه يعرف من الفرنسية والإنكليزية والعربية السليمة أفضل مما يعرفه الأستاذ الذي اختبره، ولذلك لم يترددوا لحظة في قبوله تلميذاً، سيرفع رصيد المدرسة من المتفوقين، وسجّلوه "قياساً لسّنه فقط" في الصف السابع..
ورغم أن والدي أنبّه في ذلك اليوم على رسم "الابتسامة الساخرة قليلة الأدب" كما أسمّاها.. إلا أنه بدا سعيداً ومطمئناً لنجاح غسّان في اختبار سبر المعلومات، وقبوله لمتابعة الدراسة التي انقطع عنها أكثر من عشرة أشهر..
قبل أسابيع قليلة من يوم استشهاده، ذهبت معه إلى أحد المصوّرين في شارع كورنيش المزرعة في بيروت، كان بحاجة إلى صور شخصيّة حديثة لتجديد جواز سفره.. وعندما بدأ المصوّر حركاته المعهودة لضبط مقاييس الجلسة ووضع الوجه والإضاءة وما إلى ذلك حسب خبرته، ابتسم غسّان ذات الابتسامة الساخرة..
لم يكن يعرف أن صورته وابتسامته الساخرة في ذلك اليوم، ستعلق على الجدران، صورة لشهيد..
يا إلهي.. أعترف الآن أنني أنحت في صخر..!
كأنني أحاول انتشال بوتقة من الزجاج الرقيق، محشورة بين حجارة صغيرة وصلبة وعلى عمق كبير، أمسكها من طرفها الأملس، تكاد تفلت من يدي، تعرق أصابعي، تلفحني سخونة أنفاسي، ثم شيئاً فشيئاً أبدأ بتحريكها صعوداً، تصطدم بحجر فأتوقف أبعد الحجر والحجر الثاني والثالث..
هي كذلك بهذه الصعوبة وأكثر.!
كيف أستطيع إمساكها.؟ كيف أخرجها من العمق ولا تكسر أو تشعر أو تخدش.؟
تبقى هي ذاتها تحمل البصمات والأنفاس والتاريخ والنبضات التي لا تلمس أبداً، لكنها تمتلئ بالإحساس والضمير، هي أمانة ترصد الحركة وتنقل اللحظة وتلامس قدر ما تستطيع البذور التي أنبتت ما أنبتت، ووضّعت فيما بعد العلامة الجليّة الواضحة على الشكل وما وراءه..
أجد نفسي في مكان موحش.. أجلس وحدي، أمسك بقدسية دفاتر صفراء، مجلّدة بعناية أنيقة تحمل على غلاف الدفتر الأول رقماً يبدو أبعد من التاريخ 1924 وينتهي على جلده الدفتر العاشر برقم أخير 1984 مكتوبة بخط اليد، حرفاً بعد حرف، وسطراً وراء سطر، وصفحات تتجاوز خمسة الآلاف.. تتحدث عن التاريخ.. يوماً بيوم، ساعة بساعة..

هي ذكريات، تختلط فيها الهموم بالآمال، الحزن بالسعادة، أحلام الأنا والبحث المتواصل عن الذات، وخرائط الوطن الممزّقة والمنهوبة، الشهداء بتفاصيل الأسماء والمواقع التي استقبلت أجسادهم، المعارك والمعتقلات، الأحداث السياسية الوطنية والقومية والعالمية الولادات والوفيّات، الثورات والانقلابات، أخبار الزوجة وأدق تفاصيل الحياة اليومية الحميمة، وأخبار الأخوة والأقارب والأولاد.. المدارس والملابس، الأمراض واللقاحات المحصّنة، الرحلات والأسفار، الخواطر، والأسرار العائلية..

هي ذكريات ومذكّرات واصل كتبها بصبر مذهل، وصدق فطري طيلة ستين سنة والدي رحمه الله، المولود في عام 1900 والمتوفى في 1984..

قلّبت الصفحات بوجل ورفق، قرأت برهبة، وبعشق:

- أوائل شهر تمّوز 1936 أبعدت من يافا -مكان عمله وإقامته- إلى عكا -موطنه الأول ومسقط رأسه- تحسبّاً من نشاطي السياسي ضدّ الحكومة البريطانية -خلال الفترة التي عرفت بإضراب الستة أشهر الشهيرة عام 1936-.. وكنت كما ذكرت على صفحات سابقة قد أرسلت زوجتي والأولاد إلى عكا.. وهكذا كانت فرصة بالنسبة لي لزيارة أهلي والعائلة. علمت أن الحكومة أعلنت نظام منع التجول ليلاً في المدينة، فذهبت مع بعض الأصدقاء إلى جامع الجزّار لصلاة العصر واتفقنا على البقاء مع خلق كثير في المسجد حتى موعد صلاة العشاء، وقد حدث ما توقعّناه! إذ رفضت السلطات السماح لنا بالعودة إلى بيوتنا حرصاً على تطبيق النظام، وعلينا قضاء الليل في الجامع..

بدأنا بالتسبيح والتهليل والتكبير -حسب عادات أهل عكا-، ثم أخرجنا العدّة (الطبول والدفوف والصاجات) التي تستخدم في حلقات الذكر والمولوية، وصعد بعضنا إلى مئذنة الجامع.. وعندما سمع سكان المدينة التهليل وأصوات الطبول والصاجات خرجوا من بيوتهم بعفوية لاستجلاء الأمر، وهذا ما حدث أيضاً عندما سمع المعتقلون في السجن القريب، راحوا يشاركون في التهليل والتكبير، وحمل صدى الليل أصواتنا إلى أسماع الناس في بعض القرى المجاورة.. وساد الهرج والمرج، وسارت جموع الناس بمظاهرات حاشدة إلى وسط المدينة.. ولم تعد من قدرة للسلطات البريطانية على ضبط الأحداث التي جرت بسرعة، واستطعنا باختصار اختراق نظام منع التجول..

واستمرت الحالة على هذا المنوال حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.. وبينما كنت في بيت عمي مع أسرتي في اليوم نفسه، حضر عدد من رجال البوليس اقتادوني بعنف إلى مكتب مساعد مدير البوليس السيد حسن الكاتب الذي حقق معي، وأمر بإرسالي تحت الحراسة

إلى حيفا، ومنها أرسلت إلى يافا دون حرس على أن أثبت تواجدي هناك بنقطة بوليس المنشية ثلاث مرات يومياً..

في 1936/7/15 قابلت الميجر هارنجتون بمحاولة لتخفيف قيود إثبات التواجد، وبعد حديث مطوّل بيننا، تركّز حول أسباب كرهنا للإنكليز، وعدني خيراً، على أن أراجعه شخصياً في اليوم التالي..

وبالفعل دخلت غرفته صباحاً، وحييته قائلاً:

ـ صباح الخير ميجر هارنجتون..

بالإنكليزية طبعاً. أجابني بلؤم واضح:

ـ قل سيّدي..

شعرت أنه يقصد إهانتي عن عمد، رفضت وخرجت من مكتبه..

بعد ثلاثة أيام صدر أمر اعتقالي، وقبل أن أرسل مخفوراً إلى معتقل الصرفند.. أدخلني الميجر هارنجتون إلى مكتبه وقال بأن المستر كوبلاند رئيس المحكمة المركزية حدّثه بأمري، وأنه على استعداد لتخفيف أمر اعتقالي إذا قلت له.. سيدي..

لم أفعل.. ومضيت مع الجنود إلى المعتقل..

عند دخولي المعتقل، وتسجيل اسمي في قيوده الرسمية، انتشر خبر وجودي بالمعتقل بين جميع المعتقلين الذين كنت أرافع عن أكثرهم أمام المحاكم الإنكليزية.. فحملوني على الأكتاف، وداروا عدة دورات في الساحة يهتفون ويرددون شعارات النصر لفلسطين قبل أن أدخل معهم القاووش الجماعي الكبير المبني من الخشب، وألواح التنك..

رأيت بين المعتقلين، الحاج سعيد المدهون والدكتور خليل أبو العافية وخليل أبو الهدى وعبد الرحمن بامية ورباح أبو خضرة وجودت حبيب وجودت بيبي وجودت الهبّاب وميشيل متري... وغيرهم.

كان يسمح لنا بالخروج لقضاء حاجاتنا الضرورية، ساعة واحدة في اليوم..

وقد ضمّ المعتقل 16 (قاووش) بين الواحد والآخر طريق يفصل بينهما، وشريط شائك إضافة للشريط الرئيسي المحيط بالمعتقل.. وأمامنا على مسافة بعيدة، قسم آخر من المعتقل، علمنا أنه يحتجز فيه رؤساء الأحزاب وغيرهم أيضاً.. عوني عبد الهادي وحسن صدقي الدجاني والأستاذ المظفر.. استطعنا أن نبتكر طريقة للاتصال مع بعضنا بواسطة التحدث عبر "جرّة" من الفخّار نكسر قعرها ونستعملها كالبوق وكانت تفي بالغرض، ونتبادل من خلالها صباحاً ومساءً الأخبار. وكان بيننا أيضاً بعض الأحداث الصغار..

في 1936/8/13 علمنا أن المندوب السامي البريطاني سيقوم بزيارة للمعتقل، فاتفقنا فيما بيننا على أمر وقع الاختيار عليّ لتنفيذه..
جمّعنا في الساحة الرئيسية لاستقبال (فخامته)، وفور دخوله ورؤيته لنا حاول رفع يده للتحية، وفي اللحظة نفسها رفعني بعض الرفاق على أكتافهم.
هتفت بصوت مرتفع وجهوري:
- يسقط المندوب السامي..
وردد الجميع ورائي يسقط ثلاث مرّات.. بدت مظاهر الغضب على وجهه الأحمر، ولم يكمل رفع يده، وعاد أدراجه على الفور، وقد أوجب تصرّفنا هذا حرماننا لوقت طويل من ساعة الفسحة اليومية..
بعد خروجي من المعتقل مع استمرار ضرورة إثبات تواجدي أمام الميجر هارنجتون كنت أكثر حرصاً وقصداً على أن لا أقول له سيّدي..
وعلى أثر ذلك أخبر حرس مكتبه الخاص برفض مقابلتي تحت أي ظرف، وأحالني إلى ضابط آخر لإثبات تواجدي عنده..
يتابع والدي فيقول:
في صباح يوم من أيام شهر أيلول 1938 وبينما كنا في اجتماع عادي أنا والمحامي إبراهيم نجم والمحامي أمين عقل في مكتب الأخير، نتدارس أمر ترتيبات الثورة في يافا، بعد أن تمّ تكليفنا من قبل اللجنة القومية، وما أن غادرنا المكتب. توجّهت إلى مكتبي وطلبت من الكاتب الموظف عندي "كامل الدجاني" وهو من قرية بيت دجن أن يغلق المكتب تمشّياً مع واقع الثورة العامّة في جميع أنحاء فلسطين. ثم قصدت العودة إلى بيتي، وأثناء مروري بجانب دكّان رستم أبو غزالة أخبرني أن البوليس ألقى القبض على زميلي أمين عقل، وأنهم في طريقهم إلى مكتب إبراهيم نجم ومكتبي، وحركة الاعتقالات مسعورة وعلى قدم وساق. ركبت الباص إلى بيتي، حزمت أمتعة قليلة بسرعة وركبت سيارتي وانطلقت إلى عكا، وهناك طلبت من أخي زكي السفر إلى يافا وإحضار زوجتي والأولاد إلى عكا، وواصلت سفري إلى رأس الناقورة نقطة المخفر الإنكليزي، ثم نقطة المخفر الفرنسي.. وكانت سعادتي عظيمة أن أمر منع مغادرتي البلاد لم يصل بعد إلى نقاط الحدود.. وصلت إلى بيروت وقضيت فيها عدّة أيام بزيارة الأصحاب، ثم إلى دمشق، حي الميدان للإقامة بحماية صديقي الشيخ محمد الأشمر..
"انتهى"
أقمنا بعد رحيلنا الأخير من الزبداني في حي الميدان بدمشق، الحّي الذي ما زال الماضي المعتّق ينضح فيه.. ينبض ويعيش بتفاصيله، صريحاً بملابس الرجال، وواجهات الحوانيت..

تحت إبط الباعة الجوّالين وأصحاب الدكاكين والخانات، في المساجد وأمسيات الفرح والعزاء، على أسلاك القطار الكهربائي (الترامواي) الذي ينطلق من بوّابة الميدان وحتى ساحة المرجة ويحمل يومياً فايزة إلى مدرسة الثانوية الأهلية التي قبلتها طالبة للاستعداد إلى صفّ الشهادة الثانوية، وغازي المنتسب إلى الصف التاسع (شهادة البروفيه) مع غسّان في مدرسة الكلية العلمية الوطنية..

تمكّنت والدتي في ذلك الوقت من استعارة ماكينة خياطة يدوية من السيدة أم إبراهيم إحدى جاراتنا، والعمل عليها بخياطة القمصان لصالح أصحاب محّلات بيع الألبسة في السوق بأجرة 30 قرشاً عن القميص الواحد.. وقد حقق ذلك مبالغ متواضعة ساهمت بفاعلية بأجور المواصلات ومتطلبات المدارس القليلة..

بينما انتسب مروان إلى مدرسة خالد بن الوليد طالباً في الصف الخامس، وأنا في مدرسة أسامة بن زيد طالباً في الصف الثاني. وكلتا المدرستين في حّي الميدان، ممّا يعني أننا لن نستهلك نقوداً في الذهاب أو الإياب..

أقول "بكثير من التحفّظ" أن منهج حياتنا الجديدة بدأ يستّقر على واقع الحال، فقد باشر والدي عمله في سوق الهال، إضافة إلى متابعته المتواصلة لدى السلطات والمسؤولين للسماح له بممارسة المحاماة.. كما استطاع غازي بواسطة أحد أعمامي العمل (بالواردية الليلية) في معمل الزجاج القريب من المدينة، إضافة إلى مواصلة دراسته النهارية، بجانب عمل أمي في الخياطة، ممّا حقق إيراداً منتظماً ومعقولاً لتأمين القدرة على مواصلة العيش..

ورغم ذلك واعتماداً عليه فقد كان والدي يقسّم الخبز بالتساوي بيننا، ويحدّد حجم قطعة الجبن مثلاً لواحدنا، ويفرض علينا بعد ذلك أكلها بلا زيادة ولا نقصان، وهذا الشكل من التنظيم الغذائي شمل مختلف أنواع الأطعمة، وفي كل المناسبات.. ولست أنسى كيف كانت دموع غسّان "الذي لم يكن يحب البامية على الإطلاق، رغم أشكال الإغراء" تتساقط فوق صحن الطعام وهو مكره على أكل ما فيه بالكامل.

كنّا في ذلك الوقت نعيش مع عمّتي وأسرتها الكبيرة في بيت واحد، في الوقت الذي كانت فيه أعمار أولادها متقاربة مع أعمارنا، ولك أن تتصور حجم المشكلات الممكن حدوثها رغم بساطتها وتفاهتها على الغالب إلا أنها تتراكم وتخلق عند الكبار مشاعر متفاوتة بين المهانة والاستعلاء، فهم يردّون أي شيء إلى واقع الفقر النسبي.

وهذا لا يعني أن زوج عمّتي أحسن حالاً، كان فقيراً هو الآخر، الفارق أنّه كان قادراً بكثير من اللامبالاة أن يأتي كل مساء إلى بيته في عربة حنطور، وبثياب على قدر من الأناقة، على واقع كونه موظّفاً في مؤسسة اللاجئين ومسؤولاً عن توزيع المعونات بأشكالها المختلفة على

اللاجئين. كان حريصاً على شكل المظاهر البرّاقة والتافهة -كما يسمّيها والدي-.. بينما تعاني أسرته من الضنك ما تعاني..

تنتشلني حفيدتي من جديد، تترغل بكلمات متقطعة متلعثمة لا أفهمها، كزقزقة الحسّون الذي أفلت من قفصه، وراح يصدح بفرح على غصن أقرب شجرة بلحن حّر جميل.. وهو يدرك.. ربما يدرك.؟ أنه ميت لا محالة بعد حين، إذ كيف يستطيع أن يتعّلم العيش معتمداً على نفسه، وقد ولد في قفص وتربّى فيه طيلة حياته.!

يا صغيرتي.. أعرف أنك لا تدركين.! كنّا نتسابق نحن الأربعة أمام أبي..

يأخذنا إلى الحلاّق في آخر الشارع المستقيم الضيّق الذي يكاد يتّسع (للترامواي) ذهاباً وإياباً والعدد القليل من السيارات والكثير من عربات الحنطور وعربات النقل المختلفة التي تجرّها البغال أو الحمير، وزحمة الباعة.

هذا الطريق المنتهي (ببّوابة الله) وقبل أن نصل بأمتار قليلة إلى صالون الحلاقة، ندخل في زقاق ضيق ونسير دورة كبيرة لنعود من الطرف البعيد إلى الشارع المستقيم نفسه، وهكذا في طريق العودة دون أن نجد لذلك تفسيراً..

كنا نعلم أننا لو نسلك استقامة الطريق، نختصر المسافة.. ورغم ذلك لم نجرؤ على مخالفة والدي وإصراره على أن ندخل الزقاق وندور دورتنا الطويلة كل مرة لنتجاوز ما لا يزيد عن عشرة أمتار ليس أكثر..

اكتشفنا أيضاً فيما بعد أن مضافة الشيخ "محمد الأشمر" تقوم بين مسافة الأمتار العشرة هذه..

كان والدي يهّرب بسيارته الخاّصة عن طريق لبنان بعض أنواع من السلاح والذخيرة المطلوبة والضرورية للثوّار السوريين إبّان كفاحهم ضدّ المستعمر الفرنسي ويسلّمهم شخصيّاً للمجاهد الأشمر، ويحمل في طريق العودة من طريق لبنان أيضاً أصناف سلاح أخرى للثوّار الفلسطينيين.. وغالباً ما كانت ترافقه فتاة صبّية متطّوعة من الثوّار لا على التعيين، ليبدو الأمر وكأنه رحلة حب لعاشقين، وزيادة في التمويه..

في صباح يوم ماطر، وبينما كان والدي في السوق القريب، وأمام أحد حوانيت بيع الخضار يشتري لوازم للبيت، لفتت انتباهه حركة وجلبة، سمع أحدهم يقول..

- الشيخ.!

وقبل أن يتوارى، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الشيخ محمد الأشمر..

تعانقا طويلاً، وذرفا الكثير من الدموع.. وتبادلا الكثير من الكلام، سمعت الشيخ يقول:

- حريّ بغيرك أن يخجل..!

في مساء ذلك اليوم، وقفت أمام بيتنا عربة طويلة يجرّها حصان قوّي، أفرغت حمولتها من السكر والرز والصابون والسمن والطحين واللبن وبعض الملابس، على عتبة بيتنا.. قال صاحب العربة:

- هدّية من الشيخ محمد الأشمر..!

يا صغيرتي.. عندما تكبرين.. ربما تجدين جواباً.. لماذا يبتسم غسّان وهو ميت.؟

لمست شعرها الناعم، كانت نائمة كالملائكة.. وفي أفق عينيها المسدلتين شبح ابتسامة..

۞ ۞ ۞

(4)

ألقيت بجسدي المثخن فوق الأريكة الصفراء، ودارت رأسي كما المروحة الكسولة المعلقة بالسقف التي تدور هي الأخرى بإعياء، ولا تقف عند قرار..

أغمضت عيني..

تمنيت عصاً سحريّة تلمسني، تحّولني إلى رجل خفي، أو رجل خارق، لعّلي أستطيع مرّة واحدة إعادة كل شيء إلى مكانه الصحيح، وأنهي هذا الكابوس الموغل في العمق، الذي يسّطح الأشياء إلى غابة من الضياع، ثم أقبض على تلك الأصوات الملعونة التي تصرخ من كل مكان..

تطل من شاشة، وتتبح فوق منبر خطابة، تتقيأ على صفحات مجلة، من مذياع..

كأنهم غابة من المحنّطين ثبّتت أجسادهم بأثقال من الإسمنت الأسود.. أذرعهم طويلة، رؤوسهم ممطوطة، يطبقون على كل ما يتحرك، يصرخون دون توقف..

- أنت مهزوم... أنت مهزوم..

أمسك شتات ذاتي، أتساءل..

- هل يجّر اليأس ضميري إلى هذا المدى السوداوي.؟

أغمضت عيني ثانية.. تلمّست أعضائي.. وجدتها ممتلئة بالقهر والإحباط.!

لو يبعث نبي من جديد.؟ يحمل عذاب المقهورين وآلامهم، يصقلها برغبة انتماء حقيقية، أو يحمّلهم سيوفاً يقتحمون بها أحد القضاءين.!

تصرخ الأصوات المحنّطة مرة أخرى..

- لقد انتهى عهد العضل المفتول، والسيف المصقول.. نحن أيها المهزوم نعيش عصر الفضاء، والأزرار التي تعمل من قارّات أخرى..

تحملني الرياح الثقيلة.. تأخذني إلى سهوب مفرودة، ملوّنة بأطياف أقواس شتى، بعضها باهت.. والآخر شديد الوضوح..

تتركني في ساحة ذكرى صغيرة، أمام باب خشبي متواضع لبيت قديم في حارة الشابكلية أحد فروع حّي القنوات القريب من شارع النصر وسط العاصمة دمشق يضّم فسحة مكشوفة (الديار).. حولها غرفتين، ومطبخ، وثلاثة أحواض ترابية، يحمل أحدها شجرة برتقال معمّرة، وفي الوسط بركة ماء، ودرج خشبي في الركن الأقصى يوصل بأكثر من عشر درجات سميكة إلى فسحة مكشوفة أيضاً (المشرقة).. محاطة بإفريز من القضبان الحديدية، عليه

مقبض طويل من الخشب، يهتّز ويتراقص مع حركات الارتقاء والنزول.. تنتهي الفسحة العلوية المكشوفة إلى غرفة صغيرة كثيرة النوافذ يسمونها (الفرنكة)..

في هذا البيت المتواضع والقديم أقمنا ردحاً من الزمن، منذ أواسط 1949 بعد أن أوصلتنا رحلة نزوح طويلة من يافا إلى عكا إلى الغازيّة في لبنان، إلى حمص فالزبداني، ثم إلى دمشق العاصمة العريقة التي أصرّ والدي أن تكون آخر محطة، نقيم فيها، ونعود منها..

في ذلك البيت تعلّمنا أنا وأخوتي الثلاثة طّي أوراق الملازم للصحف والمجلات لحساب المطابع القريبة وتعلّمنا كيف ننسى طفولتنا أمام استحقاقات أهم، وكيف نصّير أجسادنا آلات تتحرك وتعمل بلا كلل وبدافع غريزي بحت لتحقيق استمرار القدرة على العيش، فقط..

تعلّمنا أن لا نمرض ولا نشكو، وأن نكتفي أحياناً بالخبز وحده غذاءً رئيساً، وأن نتجاهل الأعياد والأفراح..

تعلّمّنا كيف نقاوم البرد بالأجساد، وأن لا نشكو من القيظ، تعلمّنا كيف ننام أربعة على فراش واحد، وعلى كتف واحدة مثل أسنان المشط..

وحين دبّرت أمّي أشياء مختلطة كثيرة جمعتها من كل مكان، لتصير بفعل القدرة، فراشاً مستقلاً لأخي غسّان الذي كسرت ساقه كسرين مضاعفين إثر سقوطه في حفرة على جبل قاسيون في أثناء رحلة مع رفاقه (محمود رمضان وسهيل عيّاش وابن البرغوثي).

فحملوه على حمار إلى مستشفى الغرباء في حّي الحلبوني ليخرج منه بساق محمّلة بالجبس من أعلى الفخذ وحتى أطراف الأصابع ألزمته القعود في (الفرنكة) أكثر من شهرين ينام على فراش وحده..

الأمر الذي بدا لنا غاية في الترف..

يومها لم يكن تجاوز الثالثة عشرة من عمره.

وكي ينجو من عقاب أبي. أخبرنا بقصّة منسّقة ومعقولة كيف وقع عن الرصيف عندما اصطدم به أحد المكفوفين..

لقد مثّل لي غسّان باستمرار كما كنت أرى في ذلك الوقت صورة حقيقية للمحور الذي تدور حوله كل أطياف طفولتنا (المقعدة) كما كان يحلو له أن يسميها.

واستطاع أن يجعل من فترة كساحه المؤقتة امتداداً وتأكيداً لذلك المحور..

يشدّنا بقصصه وحكاياته المثيرة التي عجبنا منذ ذلك الوقت كيف يستطيع ترتيب أحداثها الخيالية بدّقة مدهشة، ويصيّرها أمامنا أشكالاً حقيقية لأبطال حقيقيين يتحركون وينفعلون ويفعلون سواءً على الأرض أو على شاشة بيضاء، وترسم أحداثاً متسلسلة متسّقة تجعلنا أشّد ما نكون حرصاً لنلتّف حوله كل مساء بشغف وتحفّز..

نستمع إليه، ونستمتع بالرسوم الرائعة التي كان يدعم بها أبطال قصصه وساحات تحركهم برسمهم على الجبس الذي يثقل ساقه المكسورة..

أسند العصا الطويلة التي أحضرتها له من أشجار البساتين القريبة لتساعده على الوقوف، وفرد ذراعيه على أكتافنا، نظر في وجوهنا طويلاً ثم قال وكأنه ينزع مسمار الأمان لقنبلة:

ـ إنه يحتّل البيت من عشرة أيام..!

لم يجرؤ أحدنا على النطق، خيّل إلينا أنه سيبدأ سرد حكاية جديدة..

تابع يقول بجدية:

ـ رأيته، يبدو أنه يسكن في مكان ما تحت الدرج، يعرف متى يكون البيت خالياً فيخرج، يدخل إلى المطبخ، ويتجّول بأمان هنا وهناك، ومتى شعر بحركة غريبة يعود سريعاً إلى تحت الدرج..

شّد قبضته على كتفي، وتقدّم برأسه إلى الأمام، وقال بهدوء أكثر:

ـ اليوم أعتقد أنه أحّس بوجودي.. تصوروا.! لم يهرب، نظر إلي طويلاً، ثم وقف على قائمتيه الخلفيتين، وأخذ يضرب بيديه على شاربيه الطويلين.. رفعت العصا فلم يتراجع.. أحسست كأنه يسخر مني..

عشت الأيام اللاحقة مع غسّان أحداثاً لمغامرة فريدة، شدّتني كما لم يشّدني حدث متحّفز طيلة السنوات التسع من عمري التي انقضت وأنا لا أستطيع إدراك المجريات من حولي.. ولا التعرّف على ماهية الأسباب التي وضعتني أنا وأسرتي في المخاض الجديد المختلف "كما كان يقول غسّان".

في الوقت الذي كنت أعتقد فيه أنني ولدت هكذا، وسط البحيرة الضائعة المعالم والشطوط، لم أستطع إدراك السبب في حزن أمي المستمر، وثورة أبي الدائمة..

كان غسّان رغم سنيه الثلاث عشرة يمثّل أمامي ذلك النبع الغزير من المعرفة المطلقة بكل الأشياء، يعرف الأسباب ويصل إلى النتائج. يتلمّس الطريق بوضوح "كما اعتقدت في كل الأوقات" للدخول والخروج بسلاسة ويسر وهدوء..!

عشت معه تفاصيل المغامرة المثيرة..

ربطت حبلاً بمزلاج الباب الخارجي وأوصلته حتى طرف الإفريز بجانب (الفرنكة) ليتمّكن عندما يكون وحده في البيت من فتح الباب لأي طارق ومن مكانه فوق..

تعلّمنا كيف ننصب فخّاً.. أحضرت غربالاً أوقفته مائلاً، وأسندته إلى عود دقيق، ثم ربطت العود بخيط أوصلته أيضاً إلى فوق، ووضعت تحت الغربال قطعة من الجبن الأبيض..

لكن الأمر لم ينجح مع المحتّل الجديد الذي كان "كما قال غسّان"

ـ جرذاً يقطر ذكاءً وخبثاً.
أحضرت حبوباً من القمح المسموم من "دكّان برو العطّار" ونثرتها بين المطبخ وتحت الدرج، ولم تنجح هي الأخرى في القضاء عليه..
كان وكأنه يعرف، يقفز من فوقها..
حاول غسّان أن ينزل الدرج ويطارده، لكن الجبيرة الثقيلة التي تحمل ساقه حالت دون ذلك.. حملناه من وسط الدرج، وعدنا به إلى (الفرنكة)..
كثيرة الخطط التي درسناها وخطّطنا لها ونفذّناها، لكنّها خابت جميعها..
وكان الجرذ اللعين يتمكّن من النجاة في كل المرات..
لم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيت الجرذ، رغم أني فتشّت المكان تحت الدرج، ولم أعثر على أي أثر، وكدت أصدّق بأن الأمر كله "كما قال أخي الأوسط" مجرّد بداية لحكاية مثيرة جديدة من خيال غسّان يحاول أن يشدّ بها انتباهنا قدر ما يستطيع.!
قلت له في لحظة يأس:
ـ لو نفتح له الباب، ونتركه يخرج.!
أجابني بثقة وتحد:
ـهل تعتقد أنه يخرج.؟ أعتقد أن الأمر بيننا وصل إلى مرحلة متقدمة.. الهارب هو الخاسر، ولن يقبل أحدنا بهذه النتيجة..
سكت قليلاً، ثم قال وكأنه تذكّر شيئاً:
ـ لو أنك تراه كيف ينظر إلي.. يدور بسخرية حول البركة، ثم يقف في مكان يختاره ليكون أمامي بغاية الوضوح، يضرب الأرض بقدميه حيناً وبيديه غالباً.. يفتح فمه القبيح، ويصرخ.. أسمعه يقول:
أنت مهزوم... أنت مهزوم.. يكررّها ألف مرة، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً..!
تصلّبت عروق رقبته، وبدت لي جبهته أشدّ لمعاناً.. شدّ على كتفي، وتمتم:
ـ قبل أن تذهب إلى المدرسة في الغد، أحضر لي السكين الكبيرة من المطبخ..!
وقبل أن أمضي، خيّل إلي أنني سمعته يقول:
ـ لا بد أن ينتهي الأمر..
عصر ذلك اليوم.. عدت من مدرستي القريبة..
وجدت باب البيت مفتوحاً، دخلت بسرعة وترّقب..
رأيت غسّان يقف منتصباً في فضاء الفسحة العلوية، ساقه المثقلة بالجبس مغروزة كأنها رمح فارس عائد لتوّه من معركة، يقبض بكلتا يديه على حاقة الإفريز..

ابتسم بانتصار.. قال بمسرحية وهو يفرد يديه قدر اتساعهما:
- ألم أقل، أن علينا أن نحسم الأمر مرة واحدة..!
رأيت في اللحظة نفسها خيطاً متّصلاً من الدماء ممتدّاً من جانب حوض شجرة البرتقال حتى طرف مصرف البركة.. ورأيت العصا الطويلة الثقيلة الحادّة الرأس مغروزة في عنق الجرذ الملقى قتيلاً بضربة صائبة سددّها غسّان من فوق إلى رأسه مباشرة.
أصابته وقضت عليه..
لأول مرة.. رأيت فيها الجرذ المقتول..
أحسست بنشوة لذيذة..
فتحت عيني من جديد..
لم أشعر بآلام القهر.. كأن دماً جديداً غزا عروقي..
سمعت بوضوح صوت غسّان يأتيني من عمق خمسين سنة، يهمس في أذني..
- إيّاك أن تستسلم..!

(5)

تحرك الباص الوحيد الذي يخدّم مدناً وقرىً كثيرة، تمتد على طول مسافة تزيد على المائة كيلو متر إلى الشمال من مدينة دمشق، يحملنا "فايزة وغسّان وأنا" ومجموعة من الفلاحين والمزارعين وسلالهم وأغراضهم الكثيرة، عبر طريق ضيّق ومتعرج وخطر..
يرتقي تلال (الثنايا) وينحدر عنها ليرتقي مرة أخرى مرتفعات منطقة القلمون. معلولا ويبرود.. القسطل، النبك، ودير عطية وتنتهي الرحلة في قرية "قارة"..
تلك القرية التي كانت موحشة في العام 1949، المتربّعة بيوتها الطينية، وطرقاتها الترابية، والبساتين القليلة المتناثرة هنا وهناك، على آخر سفوح الجبال الجرداء، وشاطئ بادية الشام..
صامتة صمت المقابر، إلا من صوت مؤذّن الجامع الوحيد أوقات الصلوات، وجلبة تلاميذ المدرسة الابتدائية الوحيدة أيضاً التي عينت أختي الكبرى "فايزة" للتدّريس فيها، بعد أن نالت الشهادة الثانوية "البكالوريا"..
كانت الناجحة الوحيدة من مدرسة الثانوية الأهلية بدمشق، والوحيدة بالأصل التي تقدّمت باسم المدرسة إلى الفحوص الرسمية، ومثّل نجاحها في تلك الفترة قفزة إعجاز كما أطلق عليها مدير المدرسة الأستاذ "سليم اليازجي".. فقد درست المقرّر بكامله خلال شهرين فقط، بما في ذلك اللغة الفرنسية التي لم تعرف عنها شيئاً في مراحل دراستها الأولى في فلسطين، وساعدها على فهمها واستيعابها الأستاذ "عبد الله اليازجي".. وكذلك دروس التشريح والمادّة والكيمياء وتربية الطفل التي كثف الدكتور "خالد حينا" جهده بإخلاص في تدريسها، والأستاذ "مدحة عكّاش" النابغة في اللغة والأدب العربي، والآنسة "جورجيت هدبا" بدروس العروض، والأستاذ "سميح سكّري" لمادّة الرياضيات..
ولا يفوتني أن أذكر بكثير من العرفان مساعدة الطالبين "عزّت شعلان" و "عثمان قمبرجي" والأستاذ "علي شاد" وإدارة المدرسة الذين قدموا الكتب والملخّصات الهامة، وكان لهم جميعاً الدور الفاعل في تحقيق نجاحها بزمن قياسي..
ولا بد للأمانة أن أورد نص رسالة الشكر التي كتبها والدي بهذه المناسبة والتي نشرت في صحيفة "الأيام" عدد تمّوز 1949 جاء فيها:
[أمّا وقد نجحت ابنتي فايزة في امتحان البكالوريا..
واعترافاً بالجميل، أجد لزاماً علي أن أتقدّم بالشكر علناً، وعلى صفحات هذه الجريدة الغراء، إلى مدير ومعلمي ومعلمات المدرسة الثانوية الأهلية لجهودهم المشكورة التي بذلوها خلال

الشهرين الفائتين بصورة متواصلة، وتشجيعهم لابنتي لدخول الامتحان. ممّا كان له أكبر الأثر في نجاحها الباهر..

التوقيع: .... نزيل سوريا..]

وقد أثمر نجاحها المتفوق الترحيب بها كمعلمة في مدرسة الثانوية الأهلية الخاصّة ذاتها، خلال فترة العطلة الصيفية الرسمية للمدارس الحكومية، وبعد انقضاء العطلة، استوفت أجرها وأصرّت أن يكون راتبها الأول هدايا لوالديها وأخوتها..

وتصادف أن تحصّل والدي خلال الفترة نفسها، على صورة مصدّقة من شهادة الحقوق التي نالها منذ عام 1924.. وعليه فقد وافقت نقابة المحامين في سوريا على السماح له بممارسه المحاماة، ومنحته الترخيص اللازم..

افتتح مكتبه الأول في واحدة من غرف بيتنا المطلّة مباشرة على الشارع، وأثثها بالضروريات "طاولة خشبية مغطاة بشرشف من القماش الملوّن، وخزانة صغيرة فيها بعض الرفوف التي تحمل القليل من الكتب والأوراق، وثلاثة كراسي من القش لا تزيد".

أذكر قطعة مصقولة من الرخام الأسود، تحمل قاعدتين دائريتين لمحبرتين، ومركزاً أنيقاً لحمل قلم هدية فايزة لوالدها.. وهدايا مفيدة أخرى للوالدة وللجميع لا أتذكر تفاصيلها..

لكنني أذكر تماماً هديتها لغسّان.. "قلم حبر فاخر" احتفظ به لزمن طويل، وكتب به في تلك الفترة أيضاً أولى القصص ونصوص التمثيليات التي قدمّت في الإذاعة السورية "برنامج ركن الطلبة" أحياناً، وعلى صفحات جريدة الأيام في أحيان أخرى، ويذكر باعتزاز، أن القلم الفاخر الأول "يعني ذلك القلم" شكّل حافزاً هامّاً ورئيساً لعشقه للكتابة..

في تلك الفترة وبناءً على طلب رسمي قدّمه والدي، وافقت "وزارة المعارف" على تعيين فايزة معلمة وكيلة بالأرياف، وما أن بدأ العام الدراسي الرسمي حتى التحقت بعملها في قرية قارة..

سافرت مع والدي ووالدتي وأخوّي الصغيرين يحملون القليل من الأشياء الهامّة، وبعض أصناف من الطعام "لبنة وجبنة وزعتر".. وكان والدي قد حمل معه إلى (قارة) كتاب توصية من مفتش المعارف السيد "رياض الإنكليزي" سلّمه بعد مجاملات التعارف إلى السيد "فوزي الفتوى" مدير المدرسة الذي أبدى الكثير من التعاون والاهتمام ودعوة للجميع لتناول طعام الغداء في بيته..

وقدّم إلى فايزة مجموعة من النصائح تساعدها في التعامل والمعايشة مع المجتمع الجديد الذي تخوض تجربتها فيه لأول مرّة..

وتمكّن والدي بمساعدة المدير الطيب والأساتذة "زكي ديب وفائز مضري" من إيجاد واستئجار غرفة صغيرة مناسبة وقريبة من المدرسة ضمن أحد بيوت القرية المتواضعة، أثثها صاحب البيت الطيب بلا مقابل بفراش وخزانة وطاولة.. وصرنا نتناوب الإقامة معها طيلة فترة الدوام المدرسي وحتى بداية العطلة الصيفية.
كانت في التاسعة عشرة من العمر.!
"وغالباً ما يكون غسّان المتطوّع المتحمّس" يرافقها إلى قرية قارة، يذهب معها أحياناً إلى المدرسة ويجلس على أحد المقاعد بين التلاميذ يتابع باهتمام أسلوبها المشوّق والمثالي (بشهادة السيد المدير) في التدريس وفي طريقة حلّها لبعض المشكلات المربكة التي يتعرض لها التلاميذ عادة في مثل سنّهم مع أنفسهم أو بيئتهم أو مع أسرهم..
وكان يحاول رغم جهله بأمور الطبخ والمطبخ أن يخفف عنها ما استطاع مشقّة وشظف العيش.
ينظّف الغرفة، ويرتّب الفراش، ويغسل الصحون، وقد برع -كما كان يدّعي- بإعداد وجبة طعام وحيدة يحرص على تكرارها كل وقت وهي عبارة عن مزيج مطبوخ بالسمن من البيض والبندورة والبصل..
وكثيراً ما غمزت فايزة على طريقة إعداده السيئة لهذا النوع من الطعام..
لكنّها لم تشكو أمامه في أي يوم بل تبدي سعادتها.. ثم تشرب الشاي الذي يعدّه أيضاً..
يصحو باكراً، يعّد لها كأس الحليب الطازج، ويرافقها إلى المدرسة يحمل دفاتر واجبات التلاميذ والكتب التي تخصّها، وغالباً ما يعود إلى البيت أو إلى الحقول والبساتين القريبة يختلي مع نفسه ليكتب أو ليرسم.. فقد استهوته القرية.. بقسوة تضاريسها، وطيبة سكّانها، والهدوء العميق الذي يلفّها، وبساطتها.. ووحشتها.. وطبيعتها الفطرية..
يتحدّث مع (فيّاض) بوّاب المدرسة فيكتب قصّة (بطيّخة) يتحدث فيها بإسهاب وعفوية عن حياة هذا الرجل مع من حوله بما فيها من فقر وظلم وقسوة..
يسمع من (المؤذّن) عن الأفعى الكبيرة السامّة التي وجدوها ظهيرة ذات يوم تحت حصير الجامع، فيكتب قصّة (الأفعى والخروف).. ويرسم أيضاً ما توحي له هذه الصور والحكايات..
في المساء يتدارسان ما كتب أو رسم.. ولا بد أن يلي ذلك، الدرس اليومي الإلزامي في أصول وقواعد اللغة العربية وفي قراءة ما تيسّر من سور القرآن الكريم التي تصّر فايزة على أن يقرأها تجويداً بصوت مرتفع وجهوري مرات ومرات ليتمكّن -كما كانت تقول- من إتقان النطق والوقوف الصحيح على مخارج الحروف وتشكيلها والبيان السليم لمواقف التعجّب أو الدهشة أو التساؤل ....الخ.

وهذا ما أرسى منذ البدايات الأسس الصحيحة والقويمة في نسيج غسّان اللغوي والأدبي. كان له الشكل والفضل في إبداع الصور الوصفية البالغة الدقة، واللغة المتقنة، والبناء المترابط للرمز الأساسي وما حوله لأبطال وأحداث القصص والروايات التي كتبها فيما بعد..

تعود فايزة -ومن يرافقها- مساء كل يوم خميس إلى بيتنا في دمشق لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وتسافر ثانية إلى (قارة) كل يوم سبت في الصباح الباكر على متن الباص الوحيد الذي يكتفي برحلة صباحية وحيدة ذهاباً.. وإياباً في المساء..

كان نجاح فايزة المذهل، وعملها بعد ذلك في ظروف قاسية وصعبة، وفي هذه السن المبكّرة، مدفوعةً دائماً من إحساسها العميق بثقل المسؤولية، والرغبة الجامحة في المضي قدماً لتحسين الأوضاع العامّة للأسرة، وللتخفيف قدر المستطاع من معاناة أبي وأمي وتحمّلهما أقسى الظروف، وأصعب المعاناة في سبيل هدف وحيد، هو باختصار البقاء على قيد الحياة والاحتفاظ بالكرامة والمثل وعزّة النفس التي كانت طيلة رحلة عمرهما وسيلة وغاية مقدّسة..

ومن ضرورة تربية الستة الصغار -فلم يكن أخي الأصغر قد ولد بعد- وكانت فايزة أكبرنا سنّاً.. وإطعامهم وتعليمهم كونه السبيل القادر على تجديد البناء.. وإصرارها تأسيساً على معايشتها واقع حياة أسرتنا المترف قبل اللجوء، على النضال بكل ما تملك من عزم للارتفاع بالمستوى الحياتي للأسرة إلى أعلى قدر ممكن..

وهذا ما جعلته بالمجمل هدفاً مقدّساً لا يقبل التشكيك، رسمته أمامها دون سواه، ودفعت في سبيل تحقيقه أحلى سنوات شبابها، وزهرة عمرها..

حملته على كتفيها بإصرار وأمانة وإيثار واقتدار وعزيمة استثنائية، وكانت باليقين السبب والعامل الأساسي بجانب عطاء غازي أيضاً.. الذي حملنا ووصل بنا جميعاً إلى المستوى الأفضل، سواءً في أثناء الفترة الحالكة التي عشناها بتفاصيلها الدقيقة المرّة، وسط ظروف الفقر والحاجة، وفيما بعد، وحتى الآن..

أصيبت بمرض "السكّري" على إثر ولادتها القيصرية الأولى، وكان الثمن الأغلى الذي دفعته، وسبب لعينيها فيما بعد نزيفاً متواصلاً، بعد استشهاد ابنتها لميس..

ومن أجل تحقيق ما رسمته وافقت بحماس أمام أول فرصة سنحت بعرض السيد (درويش مقدادي) مدير معارف الكويت في ذلك الوقت، للعمل كمعلمة مقيمة بعقد مبدئي لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد (استمرّ يتجدّد حتى بلغت سّن التقاعد.. على مدى أكثر من خمس وثلاثين سنة)..

وسافرت مودّعة بالدموع والقلق والتمنّيات من مطار المزّة المدني في ضاحية دمشق إلى الكويت في 1950/9/23 برفقة عدد من المعلمات المتعاقدات مثلها.. بعد أن حمّلها والدي

قائمة طويلة من النصائح والتوجيهات والتعليمات المكتوبة، تتعلّق بكافة نواحي حياتها الجديدة القادمة، وطلب إليها وعداً بأن تقرأ تلك القائمة الهّامة مرّة على الأقل كل أسبوع..

وصمدت.. في تلك السنوات البعيدة، على حافة القارّة النائية التي تبدو عميقة بلا قرار..

شابّة وحيدة ما أن ينتهي دوامها في مدرسة البنات المغلقة، حتى تكمل ساعات اليوم الطويلة في سكن المعلمات..

يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وسط مجتمع شديد الانغلاق وشديد التمسّك بالماضي بكل ما فيه من تقاليد وأعراف، تجعل من المرأة بالعموم شيئاً تابعاً لسلطة -غالباً ما تكون ظالمة- تحرّم عليها حتى التنقس المريح، وتجعلها على أفضل تصنيف ركناً يجب أن يختبئ ويختفي ولا تصلح إلا للزواج والإنجاب..

ولعل الضوء الوحيد الذي رأت من خلاله الدنيا، والأشياء الجميلة التي لا بد من وجودها في مسار الحياة، بجانب الألم والحزن والشقاء. يوم تزوجت بعد سنوات من عملها في الكويت من شاب متعلم ورصين (حسين نجم) يعمل هناك في سلك التدريس أيضاً، وهو من أهالي قرية (أسدود) الواقعة في جنوب فلسطين..

كان مثالاً للرجل الحّق بما تحمل الكلمة من معنى..

طيباً وعطوفاً وكريماً ومتفهّماً، تقاسما شوط الحياة كأروع ثنائي يمكن أن يكون، وما زلنا -بسبب احترامنا الفائق له- نلقبه حتى اليوم بـ (عمّي)..

وحين بدأ الذهب الأسود يطفو فوق الرمل المحرق، وينبت ذهباً، صار الوافدون، الذين وضّعوا أسس التعليم والتقدم ونواة الحضارة، مواطنين من درجة أدنى من الثالثة، يتقدمهم بعد الأصلاء، الهنود وغير العرب..

ورغم ذلك.. استمّروا وصمدوا..

هؤلاء الذين حملوا في مرحلة سابقة جداً مسؤولية سامية، وعبّدوا بجدارة طريق الصمود الأسطوري لشعب كامل، وأذكوا نار المشعل الماراثوني الذي لا يزال يرسل نوره حتى الآن..

وصمدت فايزة مع الصامدين..

كانت ترسل لوالدي كل قرش من رواتبها، وتحمل لنا في العطلات كل ما يلزمنا ويلزم البيت، ويساهم بتخفيف أعباء الحياة الثقيلة عن كاهل أبي وأمي بشكل خاص.. ولم تكن تنسى أحداً صغيراً أو كبيراً قريباً أو بعيداً..

اشترت أول غسالة كهربائية تدخل بيتنا وأول برّاد وأول مكواة وأول غاز وأول سجّادة.. اشترت لنا أنا وأخوتي لأول مرة القمصان والأحذية الجديدة. كانت تتابع دراستنا وهمومنا ومشكلاتنا الصغيرة والكبيرة، تكتب لنا رسائل تقطر رقة وحباً وتوجيهاً..

هذه المخلوقة التي لا أجد لها وصفاً يليق بحجم العطاء الذي قدمّته بصمت ورضى ودون شكوى، الصبيّة الرقيقة التي اخترقت الجدار الفاصل بين طرفي معادلة شاغلي الحياة، ونسفت إشكالية جدلية تتمثل بالمساواة والحقوق، بلا زخرفة وبلا ضجيج وبلا رايات برّاقة تحمل شعارات ليس أكثر..

مارست وهي تنبض بأوج مشاعر الأنوثة، شكلاً وفهماً وصوتاً وتعاملاً، التزاماً حاداً لتوثيق الترابط العاطفي والماديّ، بالأسرة والمجتمع والعلاقات، إضافة لإدارتها مدرسة ثانوية للبنات، سنوات طويلة بما تحمله هذه المهمّة من مسؤولية تربوية وتوجيهية وعاطفية.. وحققت ما يشبه المستحيل..

قلت:

أن والدي اكتشف في مرحلة سابقة جداً نبوغ غسّان الفطري المبكّر، كما اكتشفت فايزة فيما بعد هذه الحقيقة أيضاً.. كانت تشتري له الأقلام والدفاتر الجميلة، والكتب الجيّدة، وأوراق الرسم وأقلام الفحم والألوان، وتقف بحذر وتهيّب وحنان وراء موهبة غسّان، تقرأ ما يكتب، وتدرس معه الكلمة والموضوع والهدف، وكثيراً ما كانت تقسو عليه بنقدها..

ولا شك بأن غسّان أدرك في شبابه المبكّر -وهو ينفطر ألماً- كيف ولماذا اختارت فايزة أن تقاتل على جبهات متعددة في سبيل تحقيق وتنمية أهلية البقاء الكريم للأسرة، بل والصعود بها للتحليق في أكثر المجالات..

وهذا بالتحديد ما خلق بينهما -ولميس التي استشهدت معه- فيما بعد علاقة حب من نوع عاصف، أثمرت أجمل الرسائل والخواطر وأدّق المشاعر والأحاسيس التي كتبها غسّان خصيّصاً لهما، وأهداهما بواكير إنتاجاته الأدبية..

كانت فايزة قوية وصلبة.. رأيتها يوم ماتت أمي تكاد تنهار، ثم تماسكت بسرعة خاطفة..

يوم استشهدا، غسّان ولميس.. انهارت.. وتحطّمت...

تمنيّت من كل قلبي لو أفتدي حزنها بروحي..

۞ ۞ ۞

(6)

فكرة خاطفة قدح شرارتها الأولى أخي غازي "الأكبر بين الذكور"، خطرت له وهو يراقب ذات يوم كتّاب العرائض الكثر أمام بناء "العابد" مجمّع المحاكم في ذلك الوقت..

همس إلى غسّان بصوت خافت..

ـ يلزمنا طاولة وكرسي، والقليل من الأوراق.. ونقبض عشرة قروش عن كل عريضة نكتبها..!

ويبدو أن المشروع المجزي على بساطته كما صوّره غازي، لاقى القبول والاستحسان..

لم يدركا أن ذلك العمل بالتحديد يحتاج أول ما يحتاج إلى المكان، إضافة إلى الخبرة في كتابة العرائض وأنواعها ومضامينها.. ولا يعني المكان "كما تصورا" فسحة مجّانية على بضعة بلاطات من الرصيف فحسب، لأن تلك البلاطات كانت مملوكة بشكل أو بآخر إلى أصحاب المحلات المتخصّصة ببيع الصحف والمجلات، وتمارس كل عمل يصل أو يصبّ في المحاكم والأحكام، ومصنّفاتها وأوراقها وقوانينها.. ومملوكة بفسحتها، بالتقادم أيضاً إلى أوائل المحتّلين لها والمواصلين بفعل القوّة هذا الاحتلال..

في الصباح الباكر.. حمل غازي الطاولة القصيرة، ولحقه غسّان بالكرسي، والأوراق والريشة والمحبرة وكانا أول الحضور، اختارا أفضل الأمكنة، وجلسا يتصيّدان حاجات الناس الغادين والرائحين.

بعد قليل، عندما حضر الأقوياء مالكو بلاط الرصيف.. طارت الطاولة إلى وسط الشارع، وتناثرت الأوراق تحت الأقدام. ولم يجدا بداً من العودة إلى البيت منكسرين وحزينين.. قبل أن يصل الأمر إلى مدى أبعد.. يطال بعلامات قاسية الوجه، أو الجسد..

في تلك الليلة، لم يناما جيداً، أمضيا الكثير من الوقت يتهامسان..

وفي صباح اليوم التالي ذهبا باكراً، وعلى وجهيهما ملامح حماسة.. علمنا فيما بعد أنهما اتفقا مع السيد (رضا حليمة) صاحب أحد المحلات في شارع رامي، الذي يقع فيه مجمّع المحاكم أن يجلسا مع الطاولة والكرسي أمام محّله، على أن يستوفي -بعد حسم ثمن الورق والحبر- نصف أجرة ما يتقاضيان..

وهكذا عادا إلى المكان.. وأمضيا نهارهما الأول..

عصر ذلك اليوم، وفي جلسة أسرية جامعة، نثرا أمام والدي خمسة وعشرين قرشاً كاملة..

كان العمل الجديد التجربة الثانية لغازي، فقد عمل سابقاً في "معمل الزجاج القريب من المدينة" وكان عملاً مرهقاً وصعباً وأكبر من مقدرة سنّه الصغيرة..

ورغم ذلك صمد شهراً كاملاً، إلى أن سقط من يديه لوح من الزجاج، كان ينقله إلى مكان محدّد داخل المعمل، سبب له جرحاً عميقاً في الفخذ أقعده في المستشفى أياماً عديدة.. وعندما تعافى. رفض مدير المعمل استخدامه من جديد بحجّة صغر سنّه..

ومنذ ذلك اليوم وهو يبحث في كل مكان، تدفعه فايزة عن أي عمل يساهم فيه ولو بالقليل لرفع معاناة الأسرة، ولم يحالفه الحظ في غالب الأحيان.

حاول العمل مع (أبو رفيق) في سوق الهال، وحاول أن يجد مكاناً له كعامل في الشركة الخماسية، وفي شركة المغازل والمناسج، حتى في معارض بيع السّجاد في منطقة الحريقة وفي أماكن أخرى لم تكن لتخطر على بال أحد.. أي عمل مهما كانت قيمته وشكله ونوع اختصاصه.. ورغم ذلك كان يواجه غالباً الخيبة والفشل..

أحّس أنه العبء الأثقل على أبي، وانطلق من إحساسه، كونه الولد الأكبر في الأسرة، الذي يجب "حسب طبيعة الحياة والعادة والتقاليد" أن يحمل الراية، المتمثلة بواقع ظروفنا الصعبة لتأمين الكفاية للقاصرين على أقل تقدير، وكانت فايزة بالخصوص، وتفانيها الصامت في هذا السبيل وخزة وجع تؤلمه.

دفعته لخلق وتحديد إطار العمل الجديد، رغم الجهل وانعدام الخبرة وتدني المستوى المأمول. وللتمسّك به بالأسنان والأظافر.. والإصرار أيضاً على مواصلة النضال للمضي فيه حتى يتاح ظرف أفضل.. على أقل تقدير.!

لم تكن القروش القليلة التي يجلبانها كل مساء غاية.. بل كانت من مفهوم غازي.. قيمة، واستحقاق جدارة، وبداية طريق..

استطاع إقناع (السيد جان) صاحب المكتب ذي الواجهة الزجاجية الأنيقة ليعلّمه "الضرب" على الآلة الكاتبة التي مثّلت في ذلك الوقت رأس هرم التكنولوجيا.. وإتقان العمل عليها يعّد اختصاصاً متميّزاً..

كانا يتعلّمان معاً، ويعملان بلا كلل في المكان ذاته..

يقضي غازي ثلاث ساعات يومياً في مكتب (السيد جان) يتعلّم الإتقان والسرعة، مقابل ما يكتبه على الآلة نفسها مجّاناً.

بينما يجلس غسّان وراء الطاولة يكتب عشرات العرائض باليد، يقبض أجرها، ويرفع رصيد أصابعه من جمالية وسرعة الكتابة، وإتقان الإملاء، وضبط استواء السطر والكلمات.. -كما فلسف لنا الأمر فيما بعد-..

في يوم ماطر وبارد، عاد غسّان إلى البيت باكراً على غير عادة، يحمل الطاولة والكرسي، وابتسامة كبيرة على وجهه المكفهّر من شدّة البرد.. التقط أنفاسه، ووضع على حضن أمي ليرة كاملة..

قال وهو يكاد يرقص فرحاً:

- رجل قروي يحمل مظروف رسالة، لم يجد في المكان المزدحم شخصاً واحداً يقدر أن يكتب له الاسم والعنوان بالإنكليزية..

وحين فعل غسّان ذلك بسهولة ويسر.. سّر الرجل ونقده ليرة كاملة.. اعتبرها غسّان كافية لأجرة عمل يوم كامل.. كان ماطراً وبارداً.

فطوى "عدّة الشغل" وقفل عائداً..

يومها عرف والدي ما يفعل غازي "وهو يحسبه أحد الأسرار".. فلم يغضب، ولم يعترض، بل صار دون أن يخبر أحداً، يوفّر جزءاً من إنتاجهما اليومي، ليدفعه فيما بعد قسطاً أولاً من ثمن آلة كاتبة ماركة (اوليفيتي) اشتراها من محل (الخوّام).. وقدّمها هدية إلى غازي..

كانت سعادته فيها لا توصف..

وحين أتيحت له الفرصة بطباعة 62 ورقة على الحرير، هي عبارة عن جداول لأسماء الناخبين أنجزها في ثلاثة أيام.. دفع ما استوفاه من أجر مباشرة كأحد أقساط الطابعة..

وتنّقل بعد ذلك بالعمل بين محل السيد (تيسير كوكش) ومحل السيد (فؤاد قطّان) وغيرهما، ودفع تتمّة الأقساط حتى أكمل الـ (150) ليرة ثمنها بالكامل..

واستطاع بعد ذلك أن يتقدّم واثقاً بأوراقه الثبوتية لأكثر من جهة رسمية للعمل كضارب ممتاز على الآلة الكاتبة..

قبل للعمل في مكتب (وكالة الأنباء العربية للدعاية والنشر) براتب 85 ليرة شهرياً، بعد أن نال المرتبة الثانية بالسرعة والإتقان بين جميع المتسابقين لهذه الوظيفة، وبلغت سرعته 63 كلمة صحيحة سليمة في الدقيقة الواحدة..

وتصادف أن استلام راتبه الأول كان في نهاية شهر رمضان، قبيل عطلة عيد الفطر..

اصطحب غسّان إلى السوق، واشتريا ملابس العيد للجميع..

وكان قرار غازي في ذلك اليوم أن يتوقّف غسّان عن العمل في كتابة العرائض نهائياً وأن يتفرغ بالكامل للدراسة.. صرّح بخيلاء:

أنه منذ الآن يعتبر نفسه المسؤول عن تعليم ثلاثتنا..

ولم يستمّر الأمر طويلاً على تلك الصورة، فقد ألّح على شقيقته فايزة للحصول على (فيزا) زيارة للكويت، ومن ثم للبحث له عن عمل هناك، وهذا ما حصل بالفعل فقد أحضرت معها

في أثناء عطلتها الأولى وقدومها إلى دمشق، (فيزا) زيارة إلى غازي الذي سافر برفقتها في 1951/9/11 بإحدى سيارات شركة -نرن، عبر الصحراء- مع بداية العام الدراسي الجديد، واستطاع بمساعدة الأصدقاء والأقارب الموجودين في الكويت أذكر منهم (سعدي أبو ظهر، وكاظم قسنيطي، والأخ رجب) التقدّم والاشتراك في مسابقة استطاع بعد نجاحه فيها الحصول على عمل مهم. "سكرتير ثالث في وزارة المعارف".. اعتمادا على تفوقه بالكتابة على الآلة الكاتبة، وعلى شهادة إتمامه -بعد نيله شهادة البروفيه السورية بتفوق- الصف الثاني الثانوي بنجاح من مدرسة الكلية العلمية الوطنية..

لا شك أن تلك النقلة، رغم مشاعر الحزن الأسري من ألم الفراق والغربة المزدوجة، ودخول الصغار المبكّر معترك الحياة من أوسع الأبواب بكل المقاييس، لاقت التشجيع من والدي الذي أراد لها إضافة لفرصة عمل جيدة ودرجة من الاستقرار المادّي والنفسي لـ "غازي". فقد رأى فيها الكثير من الإيجابيات بوجوده مع "فايزة" بعد سنة واحدة من سفرها الأول في بلد واحدة، وما لذلك من أثر طيب على كليهما، ومن زيادة في جمع المال لصالح الأسرة وتحسين حياتها على كافة المستويات.

تمثّلت أهم الإنجازات للنقلة النوعية لواقع حال الأسرة، تحديداً في عطلة السنة الثانية من عمله في الكويت.. يومها قدّما "فايزة وغازي" بفرح واعتزاز مبلغاً كبيراً من المال لوالدي، دفعة أولى لشراء قطعة أرض مناسبة، لنبني عليها فيما بعد البناء الذي يجمع الأسرة..

كتب غازي إلى غسّان الكثير من الرسائل، يبّثه فيها أدّق أحاسيسه ومشاعره، ولحظات الشعور الحزين بغربته عن بيته وأسرته لأول مرّة "لم يبلغ وقتها السابعة عشرة من". وفوق كل ذلك إصراره الأكيد على مواصلة الطريق بعزم وصلابة وإصرار ليس له مثيل..

اقتطف من رسالة له إلى غسّان بتاريخ 1952/3/30..

[أذكرّك بأخوتك، وأذكّرك بدروسك، أنت اليوم على أبواب شهادة (البروفيه) المرحلة الفاصلة بين أن تكون أو لا تكون.. إننا هنا -ولا أقول هذا منّة- نشقى ونكّد ونتعب، نتلّقى الصدمة بعد الصدمة، ونعاني من حرارة لا تطاق ولا توصف، لنوّفر لكم ما يمكّنكم من إتمام تعليمكم والخروج إلى دائرة النور، برؤوس مرفوعة للوصول في النهاية إلى مرحلة رجولة حقيقية، نافعين ومخلصين لأنفسكم وأسرتكم ووطنكم..

إنني يا أخي الحبيب أعدك أن لا أرفض لك طلباً لتأمين حياتك ومستقبلك أنت وأخوتك، على أن تعاهدني أن تكون مطيعاً لوالديك، عطوفاً على أخوتك، مجتهداً وأميناً.. فقد أراد الله أن نعيش هذه الحياة على هذه الصورة التي نقلتنا من السعادة والأمان إلى الفقر والتشرّد بعد أن أخرجنا من فلسطين الحبيبة. وليس لنا إلا الاعتماد حصّراً على أنفسنا، بالدراسة والعمل

والتحابب والتضحية لنستطيع أن نقف بعون الله من جديد على أقدامنا ونكون جديرين بحمل المسؤولية]

كان غازي شابا وسيماً، طيب المعشر، دائم الابتسام، وخفيف الظل.. ممّا جعله كثير الأصدقاء من الجنسين، وكان مطمعاً لفتيات الأسرة.. وقد عرفت رغم صغر سنّي بعدد من علاقاته العاطفية، خاصّة مع (نهلة) بنت جيراننا الجميلة، المتعلّمة والتي تسعى بجدارة للحصول على شهادة جامعية بالصيدلة، والتي لم تجد حرجاً -في ذلك الوقت- أن تنشئ صداقة مع والدتي، التي كانت تعرف أيضاً أنها بذلك تسعى للتقرب من الأسرة، وتمهّد الطريق للموافقة على زواجهما فيما بعد.. وكان غسّان بصفته الأخ التالي بالترتيب لغازي أقرب الأشخاص منه ومن مغامراته -إذا صحّت التسمية- التي لم تتجاوز علاقة عاطفية مراهقة وصبيانية لم تلبث بعد سفره بفترة قصيرة أن تلاشت من الطرفين، لنسمع ذات ليلة زغاريد الفرح والإعلان عن زواجها من صديق لها، شاب وجامعي.!

ورغم علاقاته المتعدّدة التي لم تقف في يوم أمام طموحاته الكبيرة، إلا أن زواج (نهلة) المفاجئ وعلى تلك الصورة والشكل والاختيار، لم يصدمه أو يحبطه، بل على العكس، أعطاه دفعة جديدة للأمام وقف فيها مع ذاته وقفة صفاء، ليخرج بقرار يمثّل انطلاقة جديدة، وحاسمة..

في زحمة حياته لم يكمل تعليمه العالي الذي طمح إليه، ولم يحصل حتى على شهادة (البكالوريا) التي كان الحصول عليها أحد الأهداف المقدّسة التي لا تقبل المناقشة مع والدي، الذي رضي مكرهاً بواقع الحال نتيجة الحاجة والظروف.. ورغم أن عمله في الكويت كان جيداً ومجزياً وساهم بفاعلية برفع درجة الاكتفاء والاستقرار المادّي له وللأسرة، إلا أنه كان يطمح إلى شيء أكبر تمثّل ذات يوم بمضمون رسالة إلى والده يعلمه بأنه أنهى اتصالاته للتسجيل في إحدى الجامعات الأمريكية للدراسة.. وقرّر في الوقت نفسه أن يقوم بتغطية كل المصاريف المترتّبة طيلة الفترة..

وقد خلق قراره صورة مختلفة في البيت تراوحت بين العاطفة الخالصة، والخوف (كما كنّا نسمع) من أن المسافر إلى تلك البلاد لا يعود، وإذا عاد فبرفقة زوجة بيضاء شقراء (كما قالت أمّي)، وبين طموح والدي برؤية أولاده في أحس حال، علماً ومستوىً وأخلاقاً.. وأمام هذه المفارقات التي استنزفت الكثير من الوقت والمناقشة بيننا، وأشبعت دراسة وتحليلاً.. خضعت بالنهاية إلى رأي الغالبية وإلى إصرار غازي بالتحديد، ورسالة موافقة طويلة وموضوعية من فايزة.. صدر القرار الصعب بالموافقة من الجميع ولو على مضض من بعضنا..

ساعده والدي بإنجاز وتقديم الأوراق المطلوبة، كان أهمها (الكفالة)، وتذكرة سفر بالباخرة عن طريق بيروت.. وورقة أخرى وقع عليها غازي وكتب نصّها والدي واعتبرها غاية في الأهمية.. تقول:

[أقسم بالله العظيم، وبشرفي وديني ووطني، أن أكون مخلصاً لوالدّي وأخوتي، وأن يكون هدفي الدراسة، وأن أحافظ على كرامتي وديني، وأن لا أرتكب المحرّمات على الإطلاق، وأن أكون مثالاً للأخلاق التي تربّيت عليها وأحافظ عليها، وأن لا أعاشر رفاق السوء ولا أختلط بأعداء وطني، وأن لا أتزوج من أجنبية تحت أية ظروف، وأن أعود إلى أسرتي وبيتي فور انتهاء تحصيلي.. والله على ما أقول شهيد..]

سافر غازي في 1954/7/27 إلى نيويورك بالباخرة عن طريق (بيروت ـ بيريه) ومنها إلى كاليفورنيا، ثم إلى جامعة (فرسنو ـ سكرمنتو) بعد تسع سنوات حصل على شهادة الهندسة في الميكانيك الزراعي، عاد إلى أسرته وبيته.. وتزوج من فتاة فلسطينية...

كتب والدي في مذكّراته:[ها هي رسائله ترد تباعاً من أمريكا، وهو بحمد الله موفق في دراسته وأعماله المختلفة التي يصرف منها على نفسه ولوازمه، ويرسل لأخوته في كل رسالة بعض الدولارات..

رسائله تردنا بمعّدل رسالة أو رسالتين في كل أسبوع...]

۞ ۞ ۞

(7)

لسبب أثير، مازلت أحنّ إلى ذلك البيت القديم المتهالك، بجدرانه الترابية المحشّوة بأنواع من الحشرات، وأبوابه الخشبية الثقيلة والمشققة.

ذلك البيت المحشور بين البيوت العربية القديمة الأخرى المبنّية من حجارة مصقولة، سوداء أو بيضاء، أو من طين ممزوج بالقش، بردهاته الرحبة، وسقوفه المرتفعة، المزخرفة بالرسوم والخطوط الساحرة، وزجاج النوافذ المقنطرة المعّشقة مع الخشب بتداخل هندسّي، وألوان زاهية غاية في الدقة. والأقواس الأخّاذة المرتفعة حول الفسحات الفضائية الرحبة والجميلة، المليئة بأحواض الياسمين والورود وشتى أنواع الزهور.

فضلاً عن أشجار الليمون والبرتقال والنانرج والكبّاد، وسواق للمياه من أحد فروع بردى "القنوات" تغذّي البحرات الواسعة النظيفة المبنية من الرخام الملوّن، والنوافير المنتشرة حولها..

تلك البيوت التي كانت سكناً لأكابر القوم والأغنياء والموظفين، رغم شكل أبوابها الرئيسة وما تتّصف به من تواضع شديد -له ما يبرّره- إبان الاحتلال العثماني ومن بعده الفرنسي، بغاية إبعاد مظاهر الترف عن المكان، كي لا يسترعي انتباه الطامعين..

بينما كان أي بيت من هذه البيوت -من الداخل- يزخر بمعالم الترف، ويدّلل على أقصى درجات رفاهية سكانه..

نتظاهر بالنوم تحت اللحاف الذي يغطّي أربعتنا، حتى نستوثق من نوم الأهل لنتّسل واحداً إثر الآخر.

ونتسابق للجلوس على الحجر الأسود الكبير المركون بأناقة أمام بيت (فخري البارودي)، ويسمح لنا العم (الآغا) الذي يعمل قهوجي عند البيك ويرتدي دائماً زيّه التقليدي الأسود والأخضر والأحمر الجميل، لنستمع بكامل حسّنا إلى عزف (محمد عبد الكريم) أمير البزق.

وإلى أجمل أنغام الطرب بأصوات مشاهير ذلك الوقت.. رفيق شكري، كروان، صباح فخري، فتى دمشق... وغيرهم) وحتى ساعة متأخرة من الليل..

مثّل بيت فخري بيك البارودي في مخيّلاتنا، الأساس الدائم للشكل العام لتلك البيوت، وجمالها الأخّاذ.

ونحن كلمّا وجدنا الفرصة، أطللنا برؤوسنا عبر البوّابة الرئيسة، نتمّتع بلحظات خاطفة بالنظر إلى ساحة تميس بالجمال..

عاش البارودي في ذلك البيت -على سعته- وحيداً مع (الآغا) خادمه المخلص ساعات النهار..

ومكتّظاً بالفنانين والأدباء والمفكّرين من عليّة القوم في السهرات التي تمتّد حتى الصباح..

صورة واضحة وأصيلة لنمط بيت من البيوت العظيمة الأليفة التي أخذت بألبابنا صغاراً..

وصدمتني فيما بعد بشكل مفجع يوم رأيت ذلك البيت بعد وفاة (فخري بيك البارودي) الرجل الوطني التقدمي الرائع بسنوات قليلة..

ينقلب إلى مطبعة..!

ما زلت أذكر ذلك الحيّ..

آل الطباّع، وآل الخن، والعم أبو فهمي، وجامع الشابكلية والمؤذن..

هؤلاء الناس الذين بقوا رغم إسقاطات الأحداث وتراكمها على جملة الذاكرة، ويبقون ملمس ذكرياتي الدافئ..

ولسبب ما -أدركناه فيما بعد- كثّف "مركز المعلومات الأمريكي" نشاطه واهتمامه من خلال النشرات والنشاطات المختلفة التي يقيمها وبخاّصة بين الفلسطينيين، بحجة تثقيفهم وتعليمهم اللغة الإنكليزية التي آمن والدي بضرورة وأهميّة تعلّمها وإتقانها كوسيلة إضافية مساعدة لتحقيق مستقبل أفضل..

ومن هذا اليقين، واعتماداً على النشرات التي تصلنا أسبوعياً، أصرّ والدي أن نذهب في كل يوم سبت إلى المركز المذكور لمتابعة تعلّم اللغة.

وكنّا نذهب بالفعل أنا وغسّان ومروان، -كان غازي لا يجد الوقت الكافي لذلك- ليكتشف غسّان كما أخبره الأستاذ "مدحة عكّاش" أن الأمر ليس تطوّعاً نزيهاً للتعليم فقطز

بل يعمل على زرع صورة على هذا القدر الكبير من المثالية عن مجتمعهم، ووفرة وسهولة فرص العمل التي تثمر مالاً كثيراً وسهلاً يتساقط عن أغصان الأشجار..

وصورة أخرى أهم للحرّية بشكلها الاجتماعي على وجه التحديد ومعناه في مخيّلات المراهقين لتكريس هدف واحد هام ومدروس..

التشجيع على الهجرة..

وبدلاً من أن نتوقف عن ارتياد المكان.

كتب غسّان على الآلة الكاتبة رسالة على لسان رئيس المركز بدعوة عامّة للصغار لمشاهدة أفلام علمية في صالة عرض الأفلام القريبة من المركز -التي ليس لها وجود بالأصل في محاولة منا للهروب من متابعة والدي لنشاطنا الدراسي- في كل يوم سبت أيضاً، ثم دسّها بين صفحات النشرة الأسبوعية التي تصل بانتظام ليقرأها والدي ويوافق.. بطبيعة الحال..

وكنا نذهب كل يوم سبت، نأخذ أجرة الطريق، ونلبس أحسن ما لدينا لنقضي ساعتين في -سينما غازي في المرجة- نتمتّع بمشاهدة أفلام سوبرمان والوطواط، أمام سمع وعيون والدتي المشكّكة التي اعتبرت السينما أكبر المفاسد الاجتماعية والأخلاقية، ومجرّد ذكر اسمها سبباً كافياً لإقامة الدنيا..

لكن الأمر كونه تثقيفاً وتعليماً، ويحظى بموافقة أبي فيختلف بالكلية..

لم ينقطع هذا الأمر إلا قبيل انتقالنا الحزين -كما تمثّل لي- من ذلك البيت بعد إلحاح متواصل من والدتي وفايزة وغازي..

فقد قرروا أن حال البيت بشكله وسعته، لم يعد يتناسب مع واقع حال الأسرة التي بدأت تشق الطريق إلى السطح..

في 22 أيّار 1952 انتقلنا إلى بيت جديد بالأجرة، يحتوي على غرف عديدة، وبناء حديث في منطقة (بستان الحجر - الشويكة) ملك السيد (علي كلثوم) يقع في الطابق الثالث..

في يوم انتقالنا الثاني إلى البيت الجديد.. وضعت أمي مولودها الثامن "حسّان" والأخير..

وبعد حين سمعنا من الراديو كما كان متبّعاً في ذلك الوقت. اسم غسّان مع أسماء الناجحين في شهادة (البروفيه) المتقدّمين إليها من مدرسة (الثانوية الأهلية)..

تقدّم والدي بطلب إلى مدرسة تعليم الملاحة الجويّة لتنسيب غسّان إليها وقبل أن يحصل على الجواب صدرت الموافقة على تعيينه أستاذاً للفنون في وكالة الغوث (الأونروا).. وباشر عمله أواخر العام الدراسي 1952 في معهد فلسطين (الأليانس)..

۞ ۞ ۞

(8)

تحملني أجنحة الطيور البيضاء والسمراء.. وتحلّق بي عالياً، إلى فضاءات شرقية وغربية رحبة، أشمّ ريح بردى، وتراب قاسيون، وحور الغوطة..

أمسك الغيمات من حولي.. أفصّلها، أشرّحها..

أحنّ إلى أصغر عصفور يبيت في قلب سروة.. أو يستظلّ بخيال ورقة تين..

أعبر القفار والسهول المدروزة بلحم الأبطال العظام، أطلّ على قمم النسور.. أخوض في نقاء الوديان الملّونة.. لم تعد مليئة بالضباب.. بل هي صافية مثل ماء العين.. فسيحة مثل نسيج المآسي..

أهمس ويهمس إلّي الحرف.. حتى الحرف يطّن في أذني، ساحة مقروءة حيّة.. ألمس تفاصيله وأجزاءه الصغيرة الصغيرة.. لم تعد هشّة تجلدني بطيوف الأشياء المنسّية، وظلال ذكرى بعيدة عن ملمس الأصابع الحميم..

تحملني أجنحة الطيور. تزّفني إلى الفيحاء.. تضيع روحي في تفاصيل عطائها المذهل..

آه يا حبيبتي المغموسة في قدر العشق، أنت القلب..! كنت وتبقين حتى نهاية الزمان..

تحملني أجنحة الطيور..

تفتح أمام ناظري صوراً متراكمة متراكبة، جليّة مثل فضاء تمّوز، نقيّة مثل ينابيع الدمع..

شاب أشقر، ضئيل، عرفت في عينيه السخرية، والهدوء، والقسوة.. يحمله نعل خفيف عبر الحارات المنسية.. بستان الحجر، وباب السريجة.. يشتري رغيفاً بخمسة قروش من فرن (المصري) يحشوه (عزو حديد) بالفلافل والتوابل والمخللات، ويقسمه بيننا بالتساوي.

وجبة سمينة ليوم كامل..

ننطلق خلال السوق المستقيم الطويل الملّون برتلين من الدكاكين، إلى باب الجابية فشارع البدوي فالشاغور ومنه إلى شارع الأمين.. يقف بوجل أمام البناء الأبيض العريض المسوّر ببوّابات حديدية كثيرة وكبيرة..

- (الأليانس)..؟

بعد أن نجحت في امتحانات الشهادة الابتدائية (السرتفيكا) من مدرسة الرازي القريبة من بيتنا القديم في القنوات، دخلت مرحلة الدراسة الإعدادية، وسجّلني والدي طالباً في معهد فلسطين (الأليانس) التابع لوكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين..

كنت تلميذاً في الصف السادس الذي دخله غسّان في الحصّة الثالثة لأول مرّة، وبعد أن قدّمه المدير للطلاب خرج وتركه -كما تصوّرت- غارقاً في حيرة..

فقد لاحظ بلا شك، أن قامات مجموع التلاميذ بوقوفهم للتحية أطول من قامته، وأن معظمهم أيضاً بمثل سنّه أو ما يقارب، ولا بد من أن ذلك أوقفه للمرة الأولى أمام تجربة فريدة، وقد لاحظ أيضاً -كما لاحظت- أن بعض التلاميذ أخذوا يغمزون من تلك الزاوية بالتحديد..

تمالك، ورأيته يشد على أسنانه بقوة، وعلى قبضة يده.. أمسك قطعة الطبشور وأدار ظهره للتلاميذ..

كتب بخط كبير وجميل.. درس الرسم.

وانفتل فجأة على حركة غير عاديّة أعطته الفرصة للدخول إلى الأمر الهام الذي تصوّرت أنه يناضل للوصول إليه..

شدّ ظهر الكرسي بقبضة يده الواحدة، وألقى بقطعة الطبشور بعيداً..

(أعرف أنكم لم تتوقعوا أن يحدث ويصبح مثلي أستاذاً عليكم.. هذا أمر لن أتحدث بتفاصيله الآن على الأقل.. المهم أنني هنا معكم وبينكم في صّف واحد.. قد نكون متقاربين بالسّن والقامة، الفرق المهم هنا -وأشار إلى رأسه- كما أنني أملك السلطة، وأستطيع أن أمارسها ببساطة وكما يتّطلب الأمر على شكليها.. وأنتم تقررون ذلك..)

نظر طويلاً في وجوه الجميع، وكنت طيلة الوقت أجاهد كي لا تلتقي نظراتنا. أتلهّى بالنظر في وجوه رفقائي أبحث عن صدى الكلمات الكبيرة التي قالها.. لكن أحداً لم يعّلق بكلمة أو بحركة...

عاد ثانية إلى اللوح، كتب من جديد:

معرض فلسطين للرسم والأشغال..!

بعد شهر كامل من العمل المتواصل افتتحنا في الصالة الرئيسة للمدرسة أول معرض من نوعه اشتمل على مجموعة من الرسومات وبعض المنحوتات البسيطة، والكثير من النماذج الفلسطينية التي طلب غسّان من الطلاب جلبها من بيوتهم (ملابس أو أواني أو صور..الخ) تنتمي إلى الفلكلور والتقاليد الفلسطينية، وكان يكتب بخطّه الجميل تعليقات مميّزة على كل قطعة..

مثّل المعرض بصورته المتواضعة وإنجازاته الذاتية مثالاً غير مسبوق، لأول معرض حقيقي يحمل الطابع الفلسطيني دون سواه، علامة جليّة واضحة تزرع ولا تمسح من الذاكرة الفلسطينية صورة مستّمرة للوطن..

كان غسّان يعمل لساعات طويلة يومياً وحتى ساعة متأخرة من الليل، يرسم ويلّون ويكتب ويخطّط ويصحّح رسومات الطلاب ويخلق مع الجميع مساحة حميمة من الألفة والمحبة جعلته خلال وقت قصير الشخصيّة المحبّبة والصديق المفضل، والمميّز أيضاً للجميع..

ولم يحدث خلال الفترة كلها أن تغيب أحد عن الحضور التطوّعي والمشاركة، ليبدو المكان قبل وبعد افتتاح المعرض كخليّة للنحل..
وقد حاول في تلك الفترة أن يجعل من المعرض صورة لنشاطات متعدّدة وخاصّة بطرحه إقامة أمسيات قصصية على مدار أيام العرض الذي استمر بحضور كثيف حتى بداية العام الدراسي الجديد، لكنّ هذا الأمر لم يحدث لأسباب لا أذكرها..
مع بداية العام الدراسي التالي انتقل للتدريس في (إعدادية صفد، في باب الجابية، التابعة أيضاً إلى وكالة الغوث) مع مجموعة أخرى من الطلاّب -أنا بينهم- والمدرسّين لتخفيف العبء عن معهد فلسطين المزدحم..
وكان عليه أن يتعامل مع مجموعة أخرى من الطّلاب (أكبر سنّاً)..
ومع مجموعة مميّزة وممتازة ومخلصة متفانية من الأساتذة الذين كتب عليهم قدرهم أن يكونوا المؤسسين الأوائل لحالة استمرار التاريخ والواقع والحقيقة الفلسطينية المتواصلة للفلسطينيين في فكر الجيل الذي تنبأت له أدمغة الأعداء أن يكون الجيل المهيأ للنسيان..
ولا شك أن غسّان أدرك منذ البداية هذه الحقيقة وأدرك الضرورة القصوى لإبقاء حالة من الغليان لا بد من أن تخلق في ظرف زمان ومكان، متغيرات على شكل ما..
دخل بثقة هذه المرّة قاعة الصف السابع، توجه إلى اللوح وكتب بخط واضح:
أرسم منظراً مرعباً..!
اجتاحت الطلاّب مشاعر متفاوتة بين الاستغراب والحماسة، وبدأت الأقلام ترسم أشكالاً من التصورات المرعبة..
أحدهم رسم بحراً متلاطم الأمواج، بينما رسم آخر غابة كثيفة، وثالث رسم دبّابة أو طائرة ورابع رسم وجه وحش بأنياب طويلة حادّة.. وهكذا توالت الرسومات على الطاولة أمام غسّان الذي كان يتابع كل رسم بانتباه، ثم يشطبه، ويضيف على ذيله عبارة مقتضبة:
مخيف.. وليس مرعباً..!
وحين انتهى الجميع من تقديم أعمالهم، توجّه غسّان إلى اللوح.. رسم دفتراً مفتوحاً، لوّنه بالأحمر، وكتب تحته بخط عريض.. (دفتر الإعاشة).!
ساد الصمت.. في اللحظة نفسها دخل مدرّس اللغة العربية الأستاذ (محمود فلاّحة) قاعة الصف ليراقب عن كثب ولكثرة ما سمع، ذلك الشاب الضئيل الهادئ، النموذج الديناميكي للفلسطيني الحديث الذي استطاع بزمن قياسي ومن خلال تدريس الفنون. الرسم والأشغال -المادّة الهامشية- البعيدة عن اهتمام الفقراء اللاجئين الدائرين حول محيط حلقة فيها ألف همّ وألف مشكلة وألف سؤال.. كيف استطاع أن ينحّي شعور الاستسلام السائد، وأن يخلق ساحة

مختلفة وسابقة عن الفلسطيني المهزوم والمقهور تنقله وتضعه في مقدمة استحقاقات أخرى أهمها القدرة على الفداء وتجاوز الحالة، ورسم صورة جديدة للفلسطيني –الفدائي- لم تكن واضحة المعالم بعد..

وقد أسّس الحدث الذي شاهده وأدرك أبعاده الأستاذ (فلاّحة) إلى نشوء صداقة متينة بينهما أدّت في حينه إلى إقامة تعارف بين غسّان وبين الدكتور (جورج حبش) أدّى إلى الوقوف على أرض صلبة لها مقوّماتها المختلفة المرتكزة على التاريخ والحّق وتجارب الشعوب، ليسيرا معاً انطلاقا من (حركة القوميين العرب) وما بعدها وحتى استشهاده..

في ذلك الوقت بدا واضحاً أن غسّان اتخذ القرار الصعب، وحدّد بإصرار الطريق للمستقبل الذي اختاره وارتضاه وكتمه عن أقرب الناس إليه..

كان يقرأ بنهم شديد إضافة لمؤلفات (ساطع الحصري) كتب الأدب والتاريخ والسياسة، وكان يكتب المقالة والتمثيلية والقصة القصيرة، يرسم ويخطّط. ويواصل دراسته الحرّة استعداداً لدخول امتحان الشهادة الثانوية..

وقد انصبّ اهتمامنا ذات يوم على صنع طابعة للصور الفوتوغرافية من صندوق خشبي، وتوصيلات كهربائية ولمبات مختلفة القياسات، وبعض الأحماض الكيماوية التي تعلمّناها من الأستاذ (أحمد أبو لبن) أستاذ الكيمياء ونجحنا بعد محاولات وتصميم بطبع الكثير من الصور في سقيفة بيتنا التي جعلناها مظلمة لتناسب طبيعة العمل..

في أواخر صيف 1954 تم افتتاح جناح فلسطين في معرض دمشق الدولي.. الذي أشرف عليه غسّان واستطاع أن يجعل منه بغياب الإمكانيات والمادّة، معرضاً متميزاً اقتصرت معروضاته على الصور والرسومات التي أنجزها بنفسه، وبعض المعروضات التقليدية الفلسطينية، ذلك المعرض الأول من نوعه وبما احتواه نال استحسان زوّاره الكثر..

في كانون الأول 1954 نجح غسّان في الحصول على الشهادة الثانوية الفرع الأدبي، وانتسب إلى الجامعة السورية كلّية الآداب..

الحقيقة أن نشاط غسّان الملفت لم يقتصر على ذلك، فقد عمل رساماً لفترة قصيرة في مجلّة الإنشاء لصاحبها (نجيب الحقار)، وعمل مدّرساً مسائياً في مدرسة دوحة الوطن الخاصة لأصحابها (آل سعد الدين)، بجانب اهتمامه ومواظبته التواجد والعمل والكتابة في مجّلة (الرأي) الناطقة بلسان القوميين العرب..

وكان يكتب في صحيفة (الحرّية) وصحف ومجلات مختلفة أهمّها مجلّة (الثقافة السورية..)

كما شارك بالاعتصام والإضراب عن الطعام في مكاتب جريدة (الأيام) الدمشقية مع مجموعة من الكتّاب والمعلمين لمدّة سبعة أيام متواصلة لتحقيق مطالب عادلة لهم، ولم يلبث أن عمل أيضاً في هذه الجريدة حتى أواسط عام 1955..

وفي 1955/9/12 سافر للعمل -مدرّس للرسم والرياضة- في مدرسة (خالد بن الوليد) التابعة لوزارة المعارف في الكويت..

كانت الأيام الأولى من سفره صعبة، صارعته مشاعر الغربة والتوّحد لأول مرة في حياته، لكنّه بمرور الأيام اعتادها. ولعل الرسائل الجيّاشة بالعاطفة التي لم ينقطع عن إرسالها لكل منا، ووجود فايزة وزوجها في البلد نفسه، والهدف الأسمى الذي يتطّلع إليه وقفوا بجانبه في أصعب الظروف وأقساها..

۞ ۞ ۞

(9)

هكذا أمامه يسقط الشارع..
ويزحف مستقيماً إلى ما لا نهاية، يزيح المعالم دفعة واحدة، وتتبدّل مكانها صحراء شاسعة، تستلقي النجوم فوق رمالها الذّهبية، ويتدحرج القمر ككومة شيح عصفت بها ريح غربية.. وحين تطلع الشمس تنبت شعاعاً محرقاً من ألف مكان..
ـ اشتري مني كعكة.. بخمسة قروش.!
منذ قرون حمله باص كبير إلى هناك.. حّط رحاله، حسب أنه يحّط رحاله في بيت مقتّطر يركع قبالة شاطئ طفت عليه خيوط سوداء، ممتّدة من آبار تنضح العسل والحرير، والنساء.. همسهن كبريق شمس بين أعواد سنابل.. منذ متى كان.؟ وإلى متى..؟
دارت أعمدة البيت به، دارت الدنيا، لحظات ثم هوى، واصطفق وجهه بالأرض..
كان يقرأ في جريدة مهرّبة.. كل ما حوله مهّرب.. إلا الرطوبة..
الشمس هنا لا تقهر الناس، لكنّها تميتهم وهي وراء (الطوز) المغلق.. تشويهم، تقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال..
(صبّية شقراء بيضاء –تفوز- بصفيحة مليئة بالذهب، أجرها عن ليلة.!) وأبرزت صورة ملوّنة لفخذين سمينين...
ليلة واحدة تساوي أضعاف شقاء العمر..
ـ خمسة قروش فقط..!
حملوه بعد ساعات إلى المستشفى..
تلك البيوت البيضاء أيضاً تستثمر الغرباء، تضيف إليهم صفات جديدة.. تختم فوقهم بمحبة وإنسانية، لا تخّص الأبيض والأشقر والعيون الزرق، بل تخّصه وتعنيه وترسله تحديداً إلى مستشفى آخر.. لائق.!
ـ أرجوك.. اشتري مني.. الكعكة بخمسة قروش، والله إنها مغطاة بالسكر..
دفعه الرجل الأسمر بقوّة على سرير حقير، وأردف من بين شفتيه المنشغلتين بمّص السيجارة ذات الرائحة الرديئة.. (سكّري)..
وهكذا فجأة.. ولدت الصحراء.!
ـ أعطيك ليرة كاملة، إذا جعلتني قادراً على أكلها..؟
تذّكر أنه لم يتناول في حياته كعكة قط.. لم تكن تخطر على باله، حتى عندما كان طفلاً، لم يحبّها.. يحّس أن صريرها تحت أسنانه يقوده للجنون..

هل يعطيه ليرة حقاً..؟

غاب رأسه وراء النافذة الصغيرة، يتابع الصمت الأصفر المنتشر في الخارج حتى نهاية الأفق.. يستكين مع الصفير الدقيق المتسرّب من شق ما بالنافذة..

هذه التي عبرها بالأمس ليست كما كانت.. وكيف تكون.؟ والحلم شاسع بين الشمس والقمر، يبرز بينهما بلحظة (مستقبل).. يقف على رأس حقنة يغرزها في لحمه صباح مساء...

يلمح شيئاً يتحرك من بعيد، من نقطة على الشفير..

جمل.. لا.. إنه أكبر.. ربما سيارة.. إنه أكبر.. تمنى لو ينادي على السائق ليتوقف لحظة..

رأى عشرات اللاءات مرسومة على وجوه الناس حوله المتحفّزين للوصول..

تلك المرأة تجلس على المقعد الثاني تشبه أمه..

ربما يكونون (رجالاً يعبرون الصحراء تحت الشمس) لا.. لا ليس كذلك.. إنه بلا شك (صهريج) كبير ينقل ماء الشرب إلى الطرف الآخر للصحراء..

سمعها تهمس لوالده..

ـ أقسم أنه السكّري.!

ـ اصمتي يا امرأة..

تهمس مرة أخرى بإصرار أكثر..

ـ رائحة السكر تفوح منه..

ـ أنت تهوّلين.!

يشيح بوجهه..

ـ رائحة للسكّري.. هه..

نظر في الوجوه الجاقة..

ـ لو أجد بينهم طبيباً وأسأله.. هل هناك رائحة للسكّري..؟ هه!

عاد ينظر للمرأة الجالسة في المقعد الثاني، ولسبب ما التفتت للوراء..

لا شك أنها تشبه أمه.. نحيفة، دقيقة الملامح، تقرأ على جبهتها منذ اللحظة الأولى الحكمة البالغة وتلاحظ أيضاً القدرة الخارقة على البكاء ونزف الدموع في أي وقت ولأي سبب، حتى هذه الخطوط المحفورة، الغائصة في اللحم القليل ما زالت تنز بماء العين، ولا تنضب.!

رائحة السكّري.. نعم.. نعم.. الآن يتذكّر..

فايزة أيضاً أصابها السكّري اللعين..

في تلك الليلة كانت خائفة ترتجف.. تصورت أن الموت يأتي من ها هنا.. خدّروها وشقوا بطنها، ويدها الصفراء تتشبث بأصابع أمها من البداية وحتى صرخة الحياة الأولى التي أطلقتها (لميس) وختمت الجرح الطويل على شيء اسمه (السكّري)..

تبتسم أمّي، ترسم أمامها الفرحة.. ثم تشيح بوجهها وتبكي.. وهي تشّم -حتى العظم- رائحة السكّر..

(الصهريج) الكبير يبتعد..

تبتلعه السرابات الكثيرة المنتشرة كفئران توشك أن تبتلع كل شيء..

هل تستطيع ابتلاع كل شيء.؟

هذا الأفق المغبّر ذاته، سّرب ذرّات الرمال الدقيقة إلى الحناجر والصدور، يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة.. ضاعت آلامها وتلاشت أمام عظمة الحلم.. طحنها الأمل المتقدم لرؤية بيت شاهق، فوق كل حجر فيه دمعة من أمّي، ونقطة عرق أثيرة تشارك فيها فايزة وغازي وهو..

وآه حزينة مكبوتة من أبي.. وهو يرتفع..

يختم على آلام المرض والغربة والشقاء ويصيّرها حجارة.. ويرتفع..

ما تزال الوجوه جافة، وما زالت الصحراء..

تطوي الناس والليل والشمس، تختصرهم في عيون طفلة هي ذاتها القادرة على عبور الصحراء سيراً على قدمين ذات يوم، ذاتها وهي ترضع المأساة تنسج خلايا النصر.

هكذا قرأ على صفحة الرمل.. والرمل يسير أيضاً..

دارت حجارة البيت المقدّسة، ودارت الدنيا.. حملوه إلى المستشفى..

وحين فرغ الطبيب المناوب من وصلة غزل مع ممرّضة رخيصة، تمتم بقرف..

- إلتهاب في الأذن الوسطى..

همست أمّه..

- رائحة السكّري...!

ابتسم بسخرية..

رفع رأسه ونظر بإصرار هذه المرّة إلى المرأة على المقعد الثاني..

امرأة تعرف من الرائحة، وطبيب أحمق.. الأمر خطير بلا شك..

هذا السّكر اللعين تنخفض نسبته بالدّم فتحدث الإغمائة عليك ساعتها بقضم قطعة من السكر، أو بحقنة سكر.. وعندما ترتفع النسبة يصبح (الأنسولين) ضرورياً..

وعليه أن يواجه ويصارع ويتعّلم، متى وكيف..؟

هكذا أمامه يسقط الشارع..

ويزحف مستقيماً إلى ما لا نهاية..
لم يعد يذكر الصحراء..
غزاها وانتهى الأمر.. ولا بد أن يبدأ السباق..
في العالم الذي مخر عبابه على مدى أربع وعشرين سنة، لم يجد متسّعاً حقيقياً لرعشات ريشته..
كان الورق أضيق من غزارة القلم.
واللسان أطول من الأذن..
والعمر قصير..
والسياط تملأ الأمكنة كلها..!
بدأ السباق مع الموت إذن..!

۞ ۞ ۞

(10)

هل استطعت الخروج من أناي.؟

فتحت الصفحات الصفراء، ونثرت ما فيها منذ الساعة السادسة والنصف من صباح يوم خميس 1936/4/9 إطلالة غسّان الأولى على زيتون عكا..

يومها حمل رقماً على شهادة ميلاده 2755، ربما أدرك يومها أن والده معتقل في سجن الصرفند.!

لماذا.؟

لأنه خرق مع صحبه نظام منع التجول المفروض على عكا، وحرّك مع صحبه أيضاً عبر قرع الطبول من فوق مئذنة جامع الجزّار، وصيحات الله أكبر الهادرة جماهير عكا والقرى المجاورة..

ما أن أفرج عنه حتى اعتقل مرة ثانية، هذه المرّة لدفاعه المتطرّف المجّاني بصفته محامياً منذ 1926 عن المعتقلين من الثوار في يافا.. ثم أفرج عنه بكفالة بشرط إثبات تواجده ثلاث مرات يومياً أمام الميجر هارنجتون الحاكم العسكري البريطاني. ولم تلبث السلطات أن اكتشفت أنه مع المحاميين أمين عقل وإبراهيم نجم قادة الثورة في يافا.. أصدرت بحقهم مذكّرات اعتقال قد تؤدي إلى أحكام بالإعدام، لكنّهم تمكّنوا ثلاثتهم من الهرب، وتمكّن والدي من السفر إلى سوريا واللجوء إلى حماية المجاهد محمد الأشمر الذي تعامل معه من قبل ومن بعد بتوريد السلاح لتأمين استمرار الثورتين..

هكذا كان المناخ.. وفي هذا الزخم درجت خطا غسّان الأولى..

وما أن أتّم عامه الثاني حتى أدخل إلى روضة الأستاذ وديع سرّي في يافا حيث ابتدأ بتعلّم اللغة الإنكليزية والفرنسية إلى جانب اللغة العربية واستمر فيها حتى عام 1948..

كتب والدي رحمه الله في مذكّراته بما يتعلّق بغسّان ملخّصاً اقتطف منه:

ـ غسّان طفل هادئ يحب أن يكون وحده في غالب الأوقات. مجتهد ويميل إلى القراءة، يحب الرسم حباً جمّاً، مهمل وغير مرتّب ولا يهتم بملابسه وكتبه وطعامه، وإذا ذهبنا إلى البحر وغالباً ما نفعل "كان بيتنا قريباً من الشاطئ" يجلس وحده.. يصنع زورقاً من ورق، يضعه في الماء ويتابع حركته باهتمام.

قال لي مرة وكان عمره سبع سنوات:

ـ بابا أنا أحب الألمان أكثر من الإنكليز!

سألته لماذا ؟

قال:
- لأن الإنكليز يساعدون اليهود ضدّنا.!
من هذا المدخل أصوّر حقيقة المناخ الذي عاش فيه غسّان وسط عائلة مثقفة ووطنية ذات وضع متميز اجتماعيا ومادياً سواء من جهة الأب أو الأم، وأقرر كذلك أن غسّان عاش طفولة مستقرة هادئة وعاديّة وعندما جاءت أحداث 25 نيسان 1948 يوم الهجوم الكبير على عكا، هذا اليوم الذي عاشه غسّان بكل تفاصيله، بأحداثه المأساوية التي جرت أمام عينيه فقد كان بيت جدّي لأمي "حيث أقمنا بعد رحيلنا من يافا" ملاصقاً للمستشفى الوطني الذي كان يستقبل كل لحظة الجرحى والقتلى.
ذكر والدي في مذكّراته:
- بتاريخ 1948/4/26 صحونا صباحاً على صوت الرصاص والقذائف التي تطلق باتجاه بيوتنا بكثافة من جهة محطة القطار، فخرج ولدي غازي وأحمد السالم وفاروق غندور وأخي صبحي يحملون بواريدهم ويطلقون الرصاص من بيت الدرج باتجاه اليهود المهاجمين، وخرجت لأستطلع الأمر حيث رأيت بعيني جثة رجل عربي لم أتبين من هو ملقاة في وسط الشارع. وكان ولدي غسّان حول أقاربه يجمع أغلفة الرصاص الفارغة الساخنة في المساء لاحظت بعض الحروق على كفيّه، ورأيت في عينيه نظرة لم أرها من قبل، ارتمى على صدري، لاحظت أنه مقبل على البكاء، فبكينا سويّاً..
في 29 نيسان 1948 خرجنا من عكا، أكثر من ثماني عائلات مع أمتعة بسيطة في صندوق سيارة "كميون" متنقلين بين صيدا والصالحية والميّة وميّة.
إلى أن استقر بنا المقام -عند أقرب قرية للعودة منها كما كان يبدو الوضع العام إلى فلسطين- في قرية الغازّية أقصى جنوب لبنان وفي بيت متواضع على قمّة تلّ صغير قدمّه لنا الرجل الطيب "إبراهيم أبو بيقه"..
ولا أريد أن أستفيض بسرد التفاصيل المأساوية التي عشناها، فقد أتى الكثيرون على ذكرها، وهي لا تختلف بشكل أو بآخر عن الظروف التي عانى منها الشعب الفلسطيني بكامله في تلك المرحلة الصعبة..
وقد يكفي أن أقول أن مجرد القدرة على قيد الحياة كان يعتبر إنجازاً ليس له مثيل..
في 1948/6/8 غادرنا (الغازّية) على متن قطار مخصص لنقل الحيوانات، نقلنا مع الآلاف إلى مدينة حمص في طريقه إلى حلب حيث كان المكان هناك معدّاً لاستقبال أفواج اللاجئين .
لكّن والدي أصرّ على السلطات أن ننزل في حمص لنعود منها إلى دمشق. -ولست أجد الآن

تفسيراً لإصراره على هذا الأمر- ثم واصلنا الرحيل إلى قرية (الزبداني) القريبة من دمشق والتي كانت في الأيام الخوالي المصيف المفضّل لأسرتي لقضاء إجازات الصيف..
وفي 1948/6/20 أقمنا في بيت السيد (أبو علي الزين) في الزبداني، وفيها تعلّم أخواي غازي وغسّان صنع أكياس الورق من مخلقات أكياس الإسمنت بعد لصقها بصمغ الأشجار المحلول بالماء لبيعها بقروش في الأسواق المجاورة، الأمر الذي ساعد إلى جانب خروجنا اليومي للتفتيش عن النباتات الصالحة للأكل في البراري والجبال، وكذلك أصناف الفواكه وأحشاء وأطراف الخراف المذبوحة المقدّمة لنا من السكّان الطيبين، كانت محور الارتكاز لاستمرارنا على قيد الحياة..
في 1948/10/19 عدنا إلى دمشق وأقمنا في حي الميدان بيت (إسماعيل آغا المهايني) مع أسرة عمتي التي تعد سبعة أشخاص أيضاً، وفي ذلك الوقت دخل غسّان مدرسة الكلّية العلمية الوطنية وكانت في حي سوق ساروجة وسجل مع طلاّب الصف الأول الإعدادي، ومنذ 1949/4/8 وحتى 22 أيّار 1952 أقمنا في حي الشابكلية أحد أحياء القنوات المتفرعة عن شارع النصر في بيت شعبي صغير وقديم ملك آل الطبّاع..
في هذه الفترة بالذات بدت فيها ملامح الاستقرار النسبي للأسرة، بعد أن تمكّن والدي من العمل لفترة قصيرة كمحاسب عند أحد تجّار الخضراوات في سوق الهال ريثما سمح له بممارسة أعمال المحاماة رسمياً، وافتتح مكتباً له في إحدى غرف البيت القريب من دوائر المحاكم. واستطاعت شقيقتي الكبرى فايزة النجاح بإعجاز والحصول على الشهادة الثانوية في زمن قياسي والعمل كمدّرسة في الأرياف ممّا كان يفرض على أحدنا وغالباً غسّان مرافقتها. ومن ثم توسط أحد الأقرباء لتأمين سفرها إلى الكويت للعمل كمدّرسة أيضاً وحصول أخي غازي -الذي يكبر غسّان بثلاث سنوات، ومن المفارقات أنه استشهد بعد استشهاد غسّان بثلاث سنوات 1975/4/7 إثر حادث مأساوي- على عمل في معمل الزجاج.. هذه الفترة حملت فوق تراكمات أحداث الماضي القريب والبعيد البذور التي شكّلت فيما بعد شخصية غسّان..
بتاريخ 1949/8/9 كان اليوم الأول الذي يخرج فيه غسّان برفقة شقيقه غازي للعمل (عرضحالجي) كاتب استدعاءات. على آلة كاتبة مستأجرة أمام بناء العابد مجمّع المحاكم سابقاً، والعودة مساءً للعمل أيضاً مع الباقين في طّي ملازم الكتب والصحف والمجلاّت لصالح المطابع القريبة بأجور زهيدة..
بتاريخ 1951/11/25 وبينما كان غسّان في رحلة إلى جبل قاسيون مع رفاقه أذكر منهم محمود رمضان وسهيل عيّاش وآخر من آل البرغوثي، سقط وكسرت ساقه اليسرى كسراً

مضاعفاً أقعده في البيت أكثر من ثلاثة أشهر كتب خلالها بعض الصور التمثيلية -قدّمت في الإذاعة السورية- فيما بعد، والكثير من القصص القصيرة، ورسم العديد من اللوحات، أهمها ما كان يرسمه على الجبيرة التي تحمل ساقه المكسورة والتي لو قدّر لها أن تعيش لكانت -حسب رأيي- من أروع ما رسُم لطفل في مثل سنّه تلك. وأنشأ بمخيّلاتنا الصغيرة قواعد صور من خلال قصصه وحكاياته المتسلسلة أرست فيما بعد -في تكويني على الأقل- ركائز انتماء والتزام ما زالت تعيش في تفكيري وممارستي وكتاباتي حتى الآن..

ذكر والدي رحمه الله في مذكّراته:

- بتاريخ 1950/2/12 أرسلت تحريراً إلى وزير خارجية إيطاليا بشأن ميول غسّان. وأنا شخصياً لا أشك بأن المستقبل باسم وزاهر أمام غسّان، خصوصاً في الرسم والخط والأدب العربي سواءً في نطقه أو كتابته أو ارتجاله..

في 1950/2/21 انتقل غسّان إلى مدرسة الثانوية الأهلية مديرها المربي سليم اليازجي استعداداً لتقديم فحوص الشهادة الإعدادية (البروفيه)..

عودّنا غسّان أن تكون هداياه لنا بالمناسبات "مولد أحدنا أو الأعياد الدينية والوطنية" رسائل أو لوحات يرسمها. اقتطف ملخّصاً من رسالة كتبها لأخته "سهى" بمناسبة عيد ميلادها الرابع في 1950/2/21 قال فيها:

- أشرقت في حياتنا العقيمة أملاً بعث فينا حب الاستمرار. نحتفل بعيدك الرابع والوطن خلفنا نقطة بيضاء وسط بركة من الدماء، أشهد أنني جزعت على فلسطين جزعاً تصورت أن الحياة لن تستمر بعده... أسأل الله أن يجعل عيدك الخامس فوق أرض الوطن، وتحت ظلال العروبة..

في هذه الفترة أيضاً توطدت العلاقة الحميمة بينه وبين فايزة وغازي على وجه التحديد فقد كان يرى فيهما المثل الأعلى للتضحية والإيثار. وقد كانا كذلك في الحقيقة.!

في 22 أيّار 1952 انتقلنا إلى بيت آخر في منطقة الشويكة بستان الحجر ملك السيد علي كلثوم..

وبتاريخ 1953/9/29 تقدّم والدي بطلب رسمي لينسب غسّان إلى مدرسة تعليم الملاحة الجويّة. لكن هذا الطلب أهمل فيما بعد..

بتاريخ 1953/11/18 باشر غسّان بعد حصوله على الشهادة الإعدادية العمل في مدارس الوكالة كمعلم لمادّة الرسم في معهد فلسطين، الأليانس براتب شهري مقداره 130 ليرة سورية إلى جانب مواصلة دراسته للشهادة الثانوية.. يومها جرى التعارف بينه وبين الأستاذ محمود

فلاحة الذي عرّفه على الدكتور جورج حبش. وأعتقد أن ذلك اليوم كان بداية انتمائه إلى "حركة القوميين العرب"..
ومع عمله كمعلّم في مدارس الوكالة، عمل أحياناً كمعلم أيضاً في مدرسة دوحة الوطن الخاصّة، وعمل لفترة قصيرة كرسّام في مكتب مجلّة "الإنشاء لصاحبها نجيب الحقار"..
في كانون الأول 1954 نال غسّان بنجاح الشهادة الثانوية الفرع الأدبي وسجّل انتسابه إلى الجامعة السورية كليّة الآداب. وارتفع راتبه في الوكالة إلى 150 ليرة شهرياً، وفي 1955/3/6 كتب والدي في مذكّراته:
ـ تأكدت اليوم أن غسّان منتسب إلى حركة القوميين العرب ويعمل في جريدة الرأي الناطقة باسمهم ويقضي معظم أوقاته في مكاتبها..
اعتصم مع رفاق له في مكاتب جريدة "الأيام" السورية من صباح الاثنين 1955/4/25 وحتى مساء الأحد 1955/5/1 مع إضراب عن الطعام، لتحقيق مطالب تتعلق بالمعلمين، كما أنه عمل في جريدة الأيام منذ بداية حزيران 1955 حتى أواسط آب 1955 من الساعة 9 إلى 12 ليلاً براتب 100 ليرة شهرياً.
في 1955/9/12 سافر إلى الكويت للعمل كمعلم في مدارس المعارف براتب 721.25 روبّية..
يقول والدي باختصار:
ـ كانت رسائله لنا رائعة..!
بتاريخ 1956/9/28 انتقلنا إلى بيتنا الأخير الذي ساهمنا جميعاً برفع قوائمه حجراً فوق حجر..
في 1959/5/31 اكتشفنا أثناء عطلة غسّان الصيفية أنه مريض بالسكّري بسبب الإرهاق والعمل المتواصل وليست الوراثة.. إضافة لإصابته بمرض الروماتيزم..
وقد كان يعمل في الوقت نفسه في صحيفة الحريّة ويكتب في صحف ومجلات عديدة أهمّها مجلّة الثقافة السورية إضافة لعمله الثابت في جريدة الرأي..
في 1959/7/13 سافر مع الدكتور حبش إلى بيروت وكان ما يزال يعمل في الكويت، وفي 1960/9/29 قدّم استقالته من العمل في الكويت.. وسافر مرة أخرى إلى بيروت في 1960/10/28 بهويّة عمانية باسم (هشام فايز) يرتدي الكوفية والعقال ليستقر فيها نهائياً..
كتب والدي في مذكّراته:
ـ كنت أتمنى أن يكون غسّان وأخوته المشتتون في أنحاء العالم إلى جانبي نعيش معاً في بيت واحد ساهموا جميعاً في إرساء أساسه، لكنني رغم ذلك أقرأ لغسّان كل يوم وأعرف المقالات

التي يكتبها بأسماء مستعارة. أخاف عليه، وأفخر به، أحسّ أنه سيصير ذا شأن عظيم، أحسّ به امتداداً لنا. فقد خلقت فيه المعاناة بشتى صورها وأشكالها والتي عاشها يوماً بيوم الصورة الحقيقية للفلسطيني..

وفقك الله يا غسّان.. يا قطعة غالية من كبدي..

وضعت الموساد "الإسرائيلية" تحت مقعد سيارته عبوة ناسفة قدّرت زنتها بـ 9 كيلو غرام من الـ ت،ن،ت شديد الانفجار..!

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت 8 تمّوز 1972 انفجرت العبوة.. واستشهد غسّان كنفاني مع الصبيّة لميس.. ابنة أخته الغالية فايزة....

أخيراً..

يا أخي وصديقي ومثلي الأعلى والأغلى..

هذه الحقب التي كانت غائبة عن علم من كتبوا عنك وأرّخوا لك ودرسوا مآثرك..

وها أنا ذا أسمعك تردد من جديد:

ـ بعد الموت تتبدّل الأشياء، يسافر دم القربى عبر المسافات، يمهّد سبل الخلاص للقادمين..

۞ ۞ ۞

عدنان كنفاني

شهادات

- مجلّة عمان العدد 67 كانون ثاني 2001 الأردن

منذ دخول اليهود عكّا، ومنذ أن شقّ غسّان بصوته العالي فضاء عكا، بدأت ذكريات عدنان تتوالى تباعاً، وبمهارة روائية يحسد عليها حيث جاءت أقرب إلى الكتابة الروائية الإبداعية منها إلى السيرة، فالكاتب غير بعيد عن مجال الإبداع فهو يربط الأحداث الزمنية بوشائج لغويّة غاية في الأناقة والإتقان، مستخدماً ذائقة أدبية متطوّرة لاستشراف ما يجعل القارئ مشدوداً إلى مواصلة القراءة حتى النهاية..

الكتاب باختصار وثيقة مهمّة تلقي الضوء على مرحلة مهمّة من حياة غسان كنفاني الطفل، أو تلك المرحلة التي مهّدت لولادة مبدع كبير وسط كثير من الظروف اللاطبيعية..

والكتاب كذلك إضافة حقيقية إلى المكتبة العربية بعامّة، وإلى الدراسات حول شخصية غسّان كنفاني وأدبه بشكل خاص..

۞ ۞ ۞

- سليمان الشيخ جريدة الحياة العدد 13632 تاريخ 8 تمّوز 2000 لبنان

عن تكوين ما قبل الفاجعة، وعن الأيام والليالي ومسيرة الآلام، أصدر عدنان كنفاني شقيق غسّان الرابع بين الصبيان كتاباً عنوانه صفحات كانت مطويّة عن حياة غسان وحياة العائلة الصغيرة بأفرادها الكثر نسبياً..

قد يكون فيما رواه غسان وقصّه بعض المقاطع من سيرة حياته، لكن التفاصيل بترتيبها وتتابعها ومحطّاتها ونقلاتها موجودة لدى عدنان في صفحات كانت مطويّة

۞ ۞ ۞

- جريدة الخليج العدد 7691 تاريخ 9 حزيران 2000 الإمارات

هل الثورية أو الطبائع النضالية صفات يمكن توريثها.؟ يقدّم كتاب "صفحات كانت مطويّة" من حياة المبدع والمناضل غسان كنفاني إجابة عن هذا السؤال المفصلي والمحوري في حياة العديد من المناضلين والمبدعين..

فالكاتب عدنان كنفاني الشقيق الأصغر لغسان يعرض مسير أبيه قبيل قدوم غسان، ليقول أخيراً إن موت لميس وغسان تأكيد واضح على أن النضال يورّث، والوطنية والثورة

والنضالية تنمو في مناخ وطني وعائلة وطنية وثورية تعلّمت التضحية من أجل العائلة والوطن واستمرارية الثورة..

۞ ۞ ۞

- سلمان عزّ الدين جريدة الثورة العدد 11187 تاريخ 2000/6/3 دمشق

لسنوات طويلة ظلّت هذه الصفحات مطويّة، والآن يأتي عدنان كنفاني ليفتحها ويقتطف منها صوراً دافئة.. دافئة برغم ما تختزنه من ألم وشقاء..

لغة الكتاب الدافئة تنجح في جعله مؤثراً، إنه بوح لنفس مثقلة بالذكريات، ترزح تحت وطأة صور لا زالت تطارد حاضرنا، تسألنا عن الآمال المبدّدة، والأحلام المكسورة..

۞ ۞ ۞

- بسام رجا مجلة فتح العدد 464 تاريخ2000/5/27 دمشق

الذي يمكن أن يقال، إن الحديث عن "صفحات كانت مطويّة" لا يمكن اختزاله بكلمات، فلحظات الألم والحب والتعب التي انثالت من قلم الكاتب تخبرك كم خفق قلبه وهو يسجّلها في الكتاب "الرواية" إذا جاز التعبير..

جهد إبداعي يقف وراءه كاتب تعلّم من غسّان الكثير، وبنت كلماته أعشاشها في قلبه فعبّر عن حبه لشقيقه بصفحات أراد لها أن ترى الشمس..

۞ ۞ ۞

- مجلّة سطور العدد 49 ديسمبر 2000 مصر

نشرت على صفحاتها فصلاً كاملاً من الكتاب..

۞ ۞ ۞

- مجلة الأسبوع الأدبي العدد 708 تاريخ 2000/5/13 دمشق

"غسان كنفاني صفحات كانت مطويّة" كتاب يتحدث فيه شقيق الشهيد بأمانة ومعايشة وبأسلوب قصصي شيّق عن مرحلتي الطفولة والصبا في حياة الشهيد غسان.. أسرته، معاناته، وبدايات إبداعه، والمجهولين الذين رافقوا مسيرته، وكانوا وراء صقل موهبته وعبقريته..

۞ ۞ ۞

▪ خليل صويلح مجلة الأسبوعي العدد 120 تاريخ 2000/7/18 دمشق

يستعيد عدنان كنفاني في "صفحات كانت مطويّة" سيرة شقيقه الراحل غسان كنفاني. وعلى الرغم من تهيّبه في كشف مراحل مجهولة من حياة شقيقه إلا أنه يضيء جانباً مهماً من سيرته.. سيرة الكائن البشري مجرّداً من قدسيته..

صفحات كانت مطويّة سيرة دافئة تلتقط الحميمي في حياة هذا المبدع الذي رحل باكراً، دون أن يطويه النسيان لأنه يكتب بحبر ساخن قضيّة شعبه المشرّد..

۞ ۞ ۞

▪ مجلّة فنون العدد 1025 تاريخ 2000/8/24 دمشق

لا أقول إن الكاتب يزيح الستار عن صفحات مطويّة في سيرة أخيه الأديب الراحل غسّان كنفاني، بل إنه يعيد تشكيل عناصر الصورة التي شكّلت وعي وحياة جانب كبير من الفلسطينيين بعد النزوح..

۞ ۞ ۞

▪ جريدة المحرر نيوز العدد 260 تاريخ 8 أيلول 2000

بأسلوب سلس وغنيّ، وبحسّ مرهف، وبمصداقية نادرة قدّم لنا الكاتب عدنان كنفاني كتابه "غسان كنفاني صفحات كانت مطويّة" فاستنزف ذاكرته وعاطفته في آن.. تلك الصفحات التي تحدثت عن طفولة وصبا الشهيد غسان التي ربما لم نكن نعرف عنها إلا ما استطعنا أن نقرأه بين سطور روايات الشهيد..

طفولة ملأى بالعذابات والمعاناة إثر احتلال الوطن وترك الأرض كان في تفتّق ذهني مبكّر أورث إبداعاً ونضالاً تكلّلا بالشهادة..

۞ ۞ ۞

▪ محمد أبو خضّور تشرين العدد 7918 تاريخ 2001/1/30 دمشق

عدنان كنفاني قاص مجتهد ومتابع احترق بنار النكبة الفلسطينية وهو ينطلق محلّقاً في أجواء القصّة والرواية وكل همّه الأساسي أن يحفر طريقه، وقد حفره بأظافره..

يقدّم لنا في كتابه "صفحات كانت مطويّة" صوراً هامّة "رغم اختصارها" عن شخصية شهيد ومبدع نحبه ونجلّه هو غسان كنفاني القاص والروائي والرسّام..

۞ ۞ ۞

جريدة الثورة العدد 11176 تاريخ 2000/5/20 دمشق

هل هناك أكثر من الأخ الشقيق من يستطيع أن يحدّثنا عن منابع الإبداع، ودروب الشقاء، وتجليات الإرهاصات.. فكيف إذا كانت حياة المكتوب عنه لا تقل درامية عن أدب غسّان كنفاني في كتاب "صفحات كانت مطويّة" خطّه قلم شقيقه عدنان كنفاني..

۞ ۞ ۞

- مجلّة الطلائع العدد 1298 تاريخ 2000/10/3 دمشق

كتاب عدنان عن شقيقه مفاجأة لنا.. فقد عرفنا عدنان في أواخر الخمسينات بعيداً عن أجواء الإنتاج السياسي والأدبي. وقد يكون عدم التواصل هو السبب في المفاجأة..

وكانت المفاجأة الأوسع هو الأسلوب الأدبي الذي صيغ فيه هذا الكتاب، فمرحباً بعدنان كنفاني منتجاً وفاعلاً سياسياً وأديباً ووفيّاً لشقيقه يعيدنا إلى بعض أجواء غسان كنفاني..

۞ ۞ ۞

- عفراء ميهوب جريدة تشرين العدد 7768 تاريخ 2000/8/3 دمشق

الأدب الفلسطيني تاريخ جرح ما زال ينزف دماً.. وحياة المقاومة تحمل في أحشائها حكاية وطن وقصة شعب يتوالد منه الأبطال كما تتوالد الذكريات لتؤدي وظيفتها في إذكاء شعلة الأمل والتحرير والعودة..

هكذا أضيفت إضاءة جديدة إلى العناصر الموضوعية التي شكّلت صورة الأديب غسّان كنفاني والتي عرفها القارئ من خلال ما كتبه عدنان كنفاني في "صفحات كانت مطويّة"..

وهل يصدق أحد في الحديث أكثر من الأب والأخ.؟ لا سيما عندما يتعلّق الأمر بقضية وطن..

۞ ۞ ۞

السيرة الذاتية للكاتب عدنان كنفاني



مواليد يافا ـ فلسطين
مهندس ميكانيك
أديب وكاتب وصحفي
عضو اتحاد الكتّاب العرب
عضو اتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين "فرع سورية" ومقرّر جمعية القصّة

صدر له:

غسّان كنفاني، صفحات كانت مطويّة.. سيرة
حين يصدأ السلاح.. قصص
قبور الغرباء.. قصص
على هامش المزامير.. مجموعة قصص قصيرة
بِدّو.. رواية "وهو اسم قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة القدس"
أخاف أن يدركني الصباح.. قصص
رؤى.. قصص مشاركة مع مجموعة قاّصين
بروق.. قصص مشاركة مع مجموعة قاصّين
أطياف.. قصص مشاركة مع مجموعة قاصّين
مسرحيّة وطنية "مونودراما" بعنوان "شمّة زعوط"
رابعة.. رواية "تحت الطبع"
مجموعات قصصية تحت الطبع

ويكتب أيضاً الشعر والمقالة والدراسة والبحث وينشر في الصحف والمجلات والدوريات المحليّة والعربية..

ص.ب دمشق 10481
هاتف 8821734 - 8884767
موبايل 00963935506494
بريد إلكتروني kanafani@scs-net.org